ملامحُ المفاضلةِ بين أبي تمَّام والبُحتري في كتابِ (سر الفصاحة) لابن سِنان الخَفَاجي (ت/٤٦٦هـ)

د/ أحمد رجب حجازي (*)

المستخلص

يتناول هذا البحث بالتحليل والاستنباط ملامح المفاضلة النقدية المستترة بين الشاعرين أبي تمام والبحتري في كتاب "سر الفصاحة" لابن سنان الخفاجي، حيث يهدف إلى إثبات أن ابن سنان، رغم عدم تصريحه بإجراء موازنة مباشرة، قدّم حكمًا نقديًا ضمنيًا يميل فيه بوضوح إلى تفضيل البحتري على أبي تمام. ولتحقيق هذا الهدف، يعتمد البحث على منهج استقرائي تحليلي، يقوم من خلاله بحصر وتصنيف أحكام ابن سنان النقدية على شعر الشاعرين في ثلاثة محاور رئيسية هي: فصاحة اللفظة المفردة، وفصاحة التأليف والكلام، وصحة المعاني.

ومن خلال هذا التحليل، تكشف الدراسة أن ابن سنان اتخذ من شعر أبي تمام مثالًا دائمًا على العيوب البلاغية والنقدية، مستخدمًا في نقده عبارات حادة تصل إلى السخرية والتهكم، لا سيما في أبواب الاستعارة والتعقيد اللفظي. وفي المقابل، يظهر البحتري في الكتاب نموذجًا للشاعر المحسن الذي يُقتدى به، حيث يُستشهد بشعره لإرساء قواعد الجودة الشعرية ويُمدح بعبارات الإعجاب والتقدير. وبذلك، يستخلص البحث أن ابن سنان انتقد أبا تمام بحدة وصلت إلى نقد ذات الشاعر، بينما التمس الأعذار للبحتري ورفعه إلى مصاف القدوة الشعرية.

بناءً على ما سبق، يخلص البحث إلى أن المفاضلة في "سر الفصاحة" لم تكن عفوية، بل كانت مشروعًا نقديًا مقصودًا ومُحكَمًا، وإن جاء متواريًا خلف التقعيد البلاغي. وبهذا، يُثبت البحث أن ابن سنان، عبر منهجه التطبيقي، قد حسم موقفه في الخصومة النقدية التاريخية لصالح البحتري، جاعلًا من كتابه وثيقة نقدية بالغة الأهمية تكشف عن انحياز واضح لطريقة البحتري الشعرية المطبوعة على حساب طريقة أبي تمام المصنوعة.

الكلمات المفتاحية :المفاضلة، ابن سنان الخفاجي، أبو تمام، البحتري، النقد الأدبي، سر الفصاحة.

(*) مدرس – قسم البلاغة والنَّقد الأدبيّ والأدب المقارن – كلِّيَّة دار العلوم – جامعة القاهرة .

Abstract

Features of the Comparison Between Abū Tammām and al-Buḥturī in "Sirr al-Faṣāḥah" by Ibn Sinān al-Khafājī (d. 466 AH)

By: Dr. Ahmed Ragab Hegazy

Lecturer, Department of Rhetoric, Literary Criticism, and Comparative Literature, Faculty of Dar al-Ulum, Cairo University.

This research analytically and deductively investigates the features of the implicit critical comparison (Mufāḍalah) between the poets Abū Tammām and al-Buḥturī in Ibn Sinān al-Khafājī's "Sirr al-Faṣāḥah" (The Secret of Eloquence). It aims to demonstrate that although al-Khafājī never explicitly stated he was conducting a comparison, he presented a clear, albeit implicit, critical judgment favoring al-Buḥturī over Abū Tammām. To achieve this, the study employs an inductive-analytical methodology, cataloging and classifying al-Khafājī's critical verdicts on the two poets across three main axes: the eloquence of the single word, the eloquence of composition, and the soundness of meaning.

Through this analysis, the study reveals that al-Khafājī consistently used Abū Tammām's poetry as a prime example of rhetorical and critical flaws, employing sharp and often sarcastic language, particularly concerning metaphor and verbal complexity. In contrast, al-Buḥturī is presented as a model poet to be emulated, whose verses are cited to establish principles of poetic excellence and praised with admiration. The research thus deduces that al-Khafājī's critique of Abū Tammām was severe, extending from textual criticism to personal censure, while he made excuses for al-Buḥturī and elevated him to a poetic ideal.

Consequently, the study concludes that the comparison in "Sirr al-Faṣāḥah" was not incidental but a deliberate and meticulously executed critical project, concealed within a framework of rhetorical theorization. The research thereby argues that al-Khafājī, through his applied method, decisively sided with al-Buḥturī in the historic critical rivalry, making his book a crucial document that reveals a clear bias towards al-Buḥturī's natural poetic style over Abū Tammām's more artificial one.

Keywords: Mufāḍalah (Comparison), Ibn Sinān al-Khafājī, Abū Tammām, al-Buḥturī, Literary Criticism, Sirr al-Faṣāḥah.

المقدمة

الحمدُ للهِ الذي أنزل القرآن بلسان عربي مبين، والصلاةُ والسلام على الصادق الأمين، سيدنا محمد –صلى الله عليه وسلم، ورضي الله عن الصحابة أجمعين.

وبعد...

فإن إطلاق الأحكام على الإبداع عامةً والشِّعر خاصةً قديمٌ قِدمَ الإبداع ذاته، ولا شك أنها كانت في البداية أحكامًا تغلب عليها الذاتية، والانطباع الشخصي، وشيئًا فشيئًا بدأت تزحف عليها الموضوعية، ويتسلل إليها التَّعليل، وإن لم تتخلص –أحيانًا– من شائبة الهوى.

وقد سار النقدُ في مسارين: مسار إطلاق الأحكام على شاعرٍ ما دون إقرانه بغيره من الشعراء، ومسار المفاضلة بين شاعرين أو أكثر، فلقد "كانت المفاضلة بين شاعرين وأكثر محورًا يدور حوله كثيرٌ من النقد القديم، ولكن أصولها كانت بسيطةً ساذجةً"(١)، ومن رَحِمِ المفاضلة بين الشُّعراء تتولد مفاضلةٌ أكبر وأشمل، مفاضلةٌ بين التيارات والاتجاهات والمدارس.

ولعل الساحة النقدية العربية لم تعرف مفاضلةً أقوى تأثيرًا من المفاضلة بين القدماء والمحدَثين، تلك المفاضلة التي نجَمت مع بزوغ تيار شِعريٍّ جديدٍ في القرن الثاني الهجري، وامتداده إلى ما بعد ذلك بكثيرٍ.

لقد كان من آثار تلك المفاضلة أنْ ظهرَ نقادٌ فاعلون في رقعة النَّقد العربي بمؤلفاتهم التي لا تزال معينًا ثرًّا يُنهل منه، وأنْ علتْ على السَّطح قضايا ومصطلحاتٌ شَغلت مساحاتٍ كبيرةً في مدونة النقد العربي، مثل: **(البديع، عمود الشِّعر، الطبع، التكلف، الذَّوق، الصَّنعة، الوضوح، الغموض، الإفراط، الغُلو، المبالغة، الصياغة)**.

---

(١) تاريخ النقد الأدبي عند العرب: نقد الشِّعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري، د/ إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت/ لُبنان، ط/٤، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م: ص/٨٧.

إنَّ ما أثار غبار هذه المعركة النَّقدية يكمُن في ميلاد مجموعةٍ من الشُّعراء[١] كسرتْ بِشِعرها الجديد أفق التوقع لدى المتلقي، وبخاصةٍ المتلقي الناقد؛ فأحدث هِزاتٍ عنيفةً أطلقت عقولهم للبحث عن ملامح التَّجديد، ومواطن كسر المألوف، وكلما أوغل الشعراء المحدَثون "في الابتعاد عن روح القديم أمعن النقاد في التخاصمِ والجدلِ"[٢].

وفي مقابل هؤلاء الشعراء المجدِّدين وُجد شعراء[٣] يحافظون على التَّقاليد الشِّعرية، ويراعون القارَّ الثابت في أذهان المتلقين، وهكذا أصبح لكل تيارٍ من هذين التَّيارين **(التجديد/ المحافظة)** طريقُه الشِّعري الخاص الذي يرتضيه، وإنْ لم يرُق للآخرين، وإن تعرض للنقد والاتهام، وصار واقعًا أدبيًّا نقديًّا وجود "مدرسة البديع وعلى رأسها أبو تمام، في مواجهة مدرسة عمود الشِّعر وعلى رأسها أبو عبادة البحتري"[٤].

على أنَّ احتدام الخصومة النَّقدية حول هذين التيارين/ المدرستين لم يبلغ ذُروته إلا بين أنصار كلٍّ من أبي تمَّام والبحتري، فكلٌّ منهما رأسُ طريقةٍ وعَلَمُ

(١) من هؤلاء الشُّعراء: بشار بن بُرْد (ت/١٦٨هـ)، وأبو نُوَاس (ت/١٩٨هـ)، ومُسْلم بن الوليد (ت/٢٠٨هـ)، وأبو تمَّام (ت/٢٣١هـ).

(٢) تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري، أ/ طه أحمد إبراهيم، دون بيانات نشر: ص/٨٧. ويُنظر: في نظرية الأدب، من قضايا الشِّعر والنثر في النقد العربي القديم، د/ عثمان موافي، دار المعرفة الجامعية، ٢٠٠٠م: ١/٥٥.

(٣) على رأس هؤلاء الشُّعراء: البحتري (ت/٢٨٤هـ).

(٤) محاضرات عن خليل مطران، د/ محمد مندور، معهد الدراسات العربية العالية، جامعة الدول العربية، ١٩٥٤م: ص/١١. ويُنظر: الخصومة بين القدماء والمحدَثين في النقد العربي القديم – تاريخها وقضاياها، د/ عثمان موافي، دار المعرفة الجامعية، ٢٠٠٠م: ص/٦٠، وقضية القِدم والحداثة في الشِّعر العربي، د/ فهد محمد ديب الجَمل، غزة، فلسطين، ١٤٤٣هـ/ ٢٠٢٢م: ص/١٥، ١٦، وقضايا النقد الأدبي في القرن الثالث الهجري، د/ محمد الشريدة، دار الينابيع، عمان، ط/١، ٢٠٠٥م: ص/١١٦، وانظر: نقد الشِّعر في الأدب العربي، نسيب عازار، دار المكشوف، بيروت، ١٩٣٩م: ص/١٦٥.

مذهبٍ، كلٌّ منهما يقع على طرفي نقيضٍ؛ فأبو تمام مجددٌ غاية التَّجديد، والبحتري محافظٌ غاية المحافظة.

ولئن كانت قضية القدماء والمحدَثين عامةً من أهم ما أثرى الساحة النقدية العربية، فإن المفاضلة بين أبي تمام والبحتري خاصة تعدُّ أكبر محركٍ في عملية الإثراء هذه[١]؛ إذ شَغلت قرونًا ذهبيةً من أزهى قرون النقد العربي: القرون الثالث والرابع والخامس الهجرية، وأَوجدت مؤلفاتٍ ومحاوراتٍ ومناظراتٍ حولهما نوقشت خلالها قضايا الإبداع والمبدع والمتلقي، وليس هذا فحسب، بل إنها أتاحت الفرصة لشيءٍ أبعد من النَّقد، شيءٍ بات يُعرف بـ**(نقد النقد)**.

ويبغي هذا البحثُ الوقوف مع حلقةٍ من حلقاتِ الخصومةِ بين هذين الشاعرين، تلك الحلقة التي غابت عن أذهان كثيرين ممن تعرضوا لرصد مراحل هذه المفاضلة وملامحها، وتتمثل في كتابٍ يقع في صدارة الميراث النقدي والبلاغي الذي خلَّفه القرن الخامس الهجري، وهو كتاب **(سر الفصاحة)** لابن سِنان الخفاجي (ت/٤٦٦هـ).

وتتركَّزُ مهمةُ هذا البحث في حصر أحكام ابن سنان على أشعار أبي تمام والبحتري واستقرائها، ومحاولة استنطاق هذه الأحكام؛ لاستنباط موقف الرجل من المفاضلة بين هذين الشاعرين، وهي مهمةٌ تستدعي **إجراءاتٍ منهجيةً**، مثل: الإحصاء، والاستقراء، والاستنباط، والتَّحليل، والوصف.

---

(١) يُنظر: قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، د/ محمد زكي العشماوي، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٩م: ص/٣٧٣. ونقد الشِّعر عند العرب حتى القرن الخامس للهجرة، د/ أمجد الطرابلسي، ترجمة: إدريس بلمليح، دار توبقال، المغرب، ط/١، ١٩٩٣م: ص/٩٠، وقراءة التراث النقدي، د/جابر عصفور، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مِصر، ط/١، ١٩٩٤م: ص/١١٥، والنقد المنهجي عند العرب، د/ محمد مندور، نهضة مِصر، ١٩٩٦م: ص/٥٨، ٨٠، وعمود الشِّعر في ميزان النقد (بحث)، د/ فاطمة يمينة، مجلة موازين، الجزائر، ع/١، م/٢، يونيو ٢٠٢٠م: ص/٢٣، وقضية الخصومة بين القدماء والمحدَثين وَتَجَلِّيَّاتهَا فِي النَّقْدِ العَرَبِيِّ القَدِيم (بحث)، د/ طارق زيناي، مجلة علوم اللغة العربية وآدابها، الجزائر، ع/١، م/١٣، مارس ٢٠٢١م: ص/٥٩١.

وســـينتظم هذا البحث –بإذن الله– في تمهيدٍ، وثلاثةِ مباحثَ[1]، بيانُها فيما يأتي:

التمهيد: يعالج نقطتين:

أ. سرُّ الفصاحة: الكتابُ والمؤلِّفُ في ميزان النقد.

ب. موقع ابن سِنان في مسار المفاضلة بين أبي تمام والبحتري.

المبحث الأول: المفاضلة بين الشاعرين في اختيار الألفاظ.

المبحث الثاني: المفاضلة بين الشاعرين في تأليف الكلام.

المبحث الثالث: المفاضلة بين الشاعرين في صحة المعاني.

سائلًا الله –سبحانه– العونَ والرَّشاد

***

(١) تتبُع هذه المباحث من أبواب كتاب (سر الفصاحة) لابن سِنان؛ فقد تكلم عن الفصاحة في (الألفاظ)، ثمَّ عن الألفاظ المؤلَّفة (التركيب)، ثم عن (المعاني المفردة)، وفي ثنايا حديثه ترد أشعار كلا الشاعرين مسبوقةً أو ملحوقةً بأحكامٍ نقديةٍ هي قطب الرَّحى في هذا البحث.

التمهيدُ

يحاول التمهيد الإجابة عن سؤالين: **أولهما:** كيف نَظر النقاد -قديمهم وحديثهم- إلى ابن سنان وكِتابه؟، **وثانيهما:** ما مكانُ ابن سنان في خريطة المفاضلة بين الشاعرين؟.

وفيما يأتي بسطُ الكلام حول هذين المحورين.

أولًا: سرُّ الفصاحة: الكتابُ والمؤلِّفُ في مِيزان النقد:

قليلةٌ هي الكتبُ التي تحظى بقَبولٍ عامٍّ بين النُّقَّاد؛ فقلَّما ترضى عينُ النَّقد الرضا التامَّ، ويمكن القول -دون تجاوزٍ: إنَّ كتاب (سر الفصاحة) يقع ضمن هذه القائمة القصيرةِ من الكتب المَرضية المجمعِ على قَبولها.

إنَّ ناقدًا فذًّا مثل ضياء الدِّين بن الأثير (ت/٦٣٧هـ) ليُعجب بهذا الكتابِ وصاحبه أيما إعجابٍ، حتَّى ليصرح -دون مواربةٍ- بأنه لم يترك مؤلَّفًا في عِلم البيان إلا طالعه، فلم يجد "ما ينتفع به في ذلك إلَّا كتاب الموازنة لأبي القاسم الحسن بن بشر الآمديّ، وكتاب سر الفصاحة لأبي محمد عبد الله بن سنان الخفاجيّ"(١)، ومما يلفت الانتباه ويثير التساؤل: أنَّ ابن الأثير غضَّ الطَّرف عن كتابَي عبد القاهر الجرجاني (ت/٤٧١، أو ٤٧٤هـ): دلائل الإعجاز، وأسرار البلاغة، وإن كانا قد بلغا الذُّرى، وجاورا الثُّريَّا، وارتضى في مضمار البيان ما خطَّه ابن سِنان.

ولم يكن تقديم ابن الأثير لابن سِنان وطريقتِه مجردَ لمحةٍ خاطفةٍ وومضةٍ عابرةٍ، بل كان مركوزًا في ضمير ابن الأثير؛ إذ أفصح عنه مرةً أخرى في كتابٍ آخرَ عند الحديث عن عِلمِ البيانِ كذلك، حيث عَدَّ ابنَ سنان "ممن له كتابٌ يُشار إليه، وقولٌ تُعقد الخناصر عليه"(٢).

---

(١) المثل السائر، ضياء الدِّين بن الأثير، تحقيق/ محمد محيي الدِّين عبد الحميد، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩هـ: ج١/٣، ٤.

(٢) الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، ضياء الدين بن الأثير، تحقيق/ د: مصطفى جواد، ود: جميل سعيد، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٩٥٦م/ ١٣٧٥هـ: ص/١، ٢، ٣.

وقد ردَّدَ المحدَثون من النقادِ النَّغمةَ ذاتها، ورأوا في ابن سِـــنان وكتابِه ما رأى ابن الأثير وزيادة، وفي ذلك يقول المراغي عن ابن ســـنان: "له في البلاغة كتاب سر الفصاحة، وهو من أحسن ما أُلف فيها"(١).

ويُخَطِّئُ د/ بدوي طبانة كثيرًا من الباحثين الذين أغفلوا جهد ابن سِـــنان في وضـع منهجٍ بلاغيٍّ منظَّمٍ، في الوقت الذي يتفوق فيه ابن سِنان –حسب رأي د/ بدوي طبانـة– على كِبار المقعِّدين لعِلم البلاغة أمثال: الســـكاكي والخطيب القزويني؛ لأنه "لم يذهب بالبيان ذلك المذهب القاعدي الجاف الذي ينفِّر من البلاغة"(٢)، بل إنه يَعُدُّ كتابَ (سر الفصاحة) بالنسبة للدرس البلاغي "أول كتابةٍ منظمةٍ فيه... وأن أســاطين البلاغة المعروفين... لم يكونوا مخترعيه، وإنما نقلوه نقلًا من هذا الأثر"(٣).

وإذا كان ابن الأثير لم يُشِـــر إلى عبد القاهر الجرجاني ولا إلى كتابيه في النقول آنفة الذِّكر، فإنَّ د/ محمد عبد المنعم خفاجي قد فعل خلاف ذلك؛ إذ يقول: "ومن الجدير بالذِّكر أن نشير إلى أنَّ مؤلَّف الخفاجي أعمق تفكيرًا، وأشمل فكرةً، وأوسـع مدًى، وأبلغ بيانًا، من كتابَي الجرجاني: الأسـرار والدلائل"(٤)، ومن عَجبٍ أنَّ هذا التَّصـــريح منه ورد في تقدِمته لكتاب (**أســـرار البلاغة**) لعبد القاهر الجرجاني!.

---

(١) تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها، د/ أحمد مصطفى المراغي، مطبعة مصطفى الباب الحلبي، مِصر، ط/١، ١٣٦٩هـ/ ١٩٥٠م: ص/٩٨.

(٢) البيان العربي دراسة تاريخية فنية في أصول البلاغة العربية، د/ بدوي طبانة، مكتبة الأنجلو المِصرية، ط/٢، ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٨م: ص/٩٤.

(٣) البيان العربي دراسة تاريخية فنية في أصول البلاغة العربية: ص/٩٩ بتصرفٍ.

(٤) أسـرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق د/ محمد عبد المنعم خفاجي، مكتبة القاهرة، ط/٣، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م: ١/٥٨.

وليس يملك المرء حِيالَ هذا الإطراء المستحق لابن سِنان وكتابه إلا أن يُسلِّمَ بقيمةِ هذا العمل البلاغي النَّقدي، الذي هو "من أروع ما أفرزته القريحة العربية في القرن الخامس الهجري"(١)، **ولعل تفضيل ابن سِنان في كتابه هذا عائدٌ إلى:**

- إثارته لشروطٍ الفصاحة (الكلمة، الكلام) بصورةٍ لم تُعهد قبله، واعتماد من بعدَه عليه.
- اعتماده التَّطبيق العملي كثيرًا، والاقتصاد من التَّنظير الذي كان سائدًا وقتئذٍ.
- تنظيمه لطريقة العرض؛ إذ رتَّبه ترتيبًا ارتقائيًّا من الأصغر إلى الأكبر (الصوت، اللفظ، التركيب، المعاني).

ومما يسترعي النَّظر أنَّ أحدًا من قدماء النقاد ومحدثيهم –فيما طالعتُ– لم يُشِر إلى ابن سنان باعتباره من أهم الذين فاضلوا بين أبي تمام والبحتري، ولم يُحِل إلى كتابه (سر الفصاحة) بوصفه –فيما أحسب– ركنًا في بناء هذه المفاضلة، ولعلَّ ذلك راجعٌ إلى بُعد ابن سِنان زمنيًّا عن وقت احتدام الخصومة بين هذين الشَّاعرين، تلكم الخصومة التي حمِيت في القرنين الثالث والرابع الهجريين، فلما جاء ابن سنان في القرن الخامس الهجري كانت قد هدأت إلى حدٍّ بعيدٍ، وبدا على الساحة ميدانٌ جديدٌ جديرٌ بالاهتمام، وهو ميدان التقعيد للبلاغة وعلومها، ذلكم الميدان الذي عُدَّ ابنُ سنان من فرسانه السابقين، الضَّاربين فيه بأوفر سهمٍ.

***

(١) من قضايا البلاغة والنقد، د/ عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني، مكتبة وهبة، القاهرة، ط/١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م: ص/٩، ويُنظر: كتاب سر الفصاحة لابن سِنان الخفاجي (ت/٤٦٦هـ) المفترى عليه (بحث)، د/عبد المنعم السيد الشحات رزق، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية، دمياط، مِصر، ع/٧، ٢٠١٩م: ص/٣٣.

ثانيًا: موقع ابن سِنان في مسار المفاضلة بين أبي تمام والبحتري:

لم تَسلك المفاضلة بين أبي تمام والبحتري مسارًا واحدًا، بل تفرَّقت بها السبل بين التَّصريح والتَّلميح، وفيما يأتي رصدٌ لأهم مسارات المفاضلة بين هذين الشاعرين:

أ. التَّصريح بتفضيل أحدِهما على الآخر:

لعلَّ هذه المسار هو أكثر مسارات المفاضلة شيوعًا، وأوضحها تعبيرًا عن الموقف النَّقدي من هذا الشَّاعر أو ذاك، وفيه يلهجُ ناقدٌ ما بتفضيلِ أحدِ الشاعرين صراحةً دون أدنى مواربةٍ، وطبعيٌّ أن يكون لأبي تمام مفضلون، وللبحتري مناصرون:

*** المفضلون لأبي تمام:**

لا يكون المرءُ مبالغًا حين يقول: إنَّ أبا تمام أثار ما لم يُثِرْه شاعرٌ قبله أو بعده بما جاء به من مذهبٍ شِعريٍّ حيَّر النُّقاد قديمًا وحديثًا، حتَّى لتجتمع فيه المتناقضات؛ فمِن مقرٍّ بأنه إمام المجدِّدين في نسيج الشِّعر العربي حتى لقد "خرج عما أَلِفته العربُ من أسلوبٍ في صياغة الشِّعر"(١)، إلى باحثٍ عن محافظته وأصالته، ففي "شِعره ما يدل على محافظته على معظم العناصر الأساسية لعمود الشِّعر العربي"(٢)، إلى واضعٍ له في موقع يجمع بين المحافظة والتَّجديد، فهو "أكثر شعراء عصره أصالةً وتفردًا وتجديدًا"(٣)، ومِن راءٍ أنَّه أحرص الشعراء على فنون البديع وألوان الصياغة اللفظية، "بل إن الشعر لا يكون شِعرًا عند أبي تمام إلا إذا زُين بحليةٍ أو بأخرى من حِلى البديع"(٤)، إلى راءٍ أنه أكثر المحدَثين وأغزرهم توليدًا للمعاني وتشقيقًا لها، فقد "وَهب للشِّعر العربي عددًا هامًّا من المعاني والصور التي تعسَر مضاهاتها... وفي ديوانه مقطوعاتٌ تعتبر أروع ما

(١) قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث: ص/٣٧٣.
(٢) الخصومة بين القدماء والمحدَثين في النقد العربي القديم – تاريخها وقضاياها: ص/٨٤.
(٣) نقد الشعر عند العرب حتى القرن الخامس للهجرة: ص/٩١.
(٤) قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث: ص/٣٧٣.

قيل من شِـعرٍ عربيٍّ على الإطلاق"[١]، ولأجْل هذا الاختلاف البيِّن حوله مثَّل أبو تمام ظاهرةً فريدةً، وحدثًا بارزًا في سجلِّ النَّقد العربي.

وقائمـةُ المقدِّمين لطريقة أبي تمام –رغم كل ما أُثير حولـه من جدلٍ– ثريَّـةٌ بأسـماءِ نقادٍ لهم ثِقلهم في مضـمار نقد الكلام وتمييزه، وممتدةٌ حتى العصـور المتأخرة، وفي طليعـة هؤلاء عبدُ اللـه بن المعتز (ت/٢٩٦هـ)، هذا النـاقد الـذي انبرى يُشـيد بأبي تَّمام في كثيرٍ من مؤلفاته الهامة، فإذا ما قارن بين أبي تمام والبحتري قال عن الأخير: "فأما أن يَشـق غبارَ الطائي في الحذق بالمعاني والمحاسن فهيهات، بل يغرق في بحره"[٢]، وقال عن الأول: "وشِعره كله حسنٌ"[٣].

فإذا انتقلنا إلى القرن الرابع الهجري ألفيناه يعجُّ بالمفضـلين لمذهب أبي تمام، فأبو بكر الصـولي (ت/٣٣٥هـ) يُسـهم بكتابين: الأول (أخبار أبي تمام)، وعن سـبب تأليفه يقول: "كان قصـدي تبيين فضـله، والرد على من جهِل الحق فيه"[٤]، والثاني (أخبار البحتري)، وهذا الكتاب وإن بدا من عنوانه أنه يخص البحتري، فإن الصـولي لم يتورع أن يبدأه بذِكر أفضـال أبي تمام على البحتري، وجلْب كلام العلماء في فضـل أبي تمام، وقد أطال في ذلك كثيرًا[٥]، بل إنه ليقول فيه عن

(١) نقد الشـعر عند العرب حتى القرن الخامس للهجرة: ص/٩١ بتصـرفٍ، وانظر: العمدة في محاسن الشِّعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مِصر، ط/٢، ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٥م: ٢/٢٤٤.

(٢) رسـالة في محاسـن أبي تمام ومسـاوئه، عبد الله من المعتز، ت: د/ عبد الكريم الحبيب، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، ع/٤٨، ١/١/١٩٩٥م: ص/٣٠٦.

(٣) طبقات الشـعراء، عبد الله بن المعتز، تحقيق: عبد السـتار أحمد فراج، دار المعارف، مِصر، سلسلة ذخائر العرب، ع/٢٠: ص/٢٨٤.

(٤) أخبار أبي تمام، أبو بكر محمد بن يحيى الصَّـولي، تحقيق: خليل محمود عسـاكر، محمد عبده عزام، نظير الإسـلام الهندي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشـر، القاهرة، ١٣٥٦هـ/ ١٩٣٧م: ص/٥، ويُنظر: تاريخ النقد الأدبي عند العرب: نقد الشِّـعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري: ص/١٥٢، يقول الأسـتاذ/ أحمد أمين في تقديمه لكتاب (أخبار أبي تمام): "وألف الصولي هذا الكتاب يتعصب فيه لأبي تمام" ص/اا١هـ.

(٥) يُنظر: أخبار البحتري، أبو بكر محمد بن يحيى الصَّـولي، تحقيق: د/ صـالح الأشـتر، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٨م: ص/٥٥–٧٠.

البحتري: "وإني لأراه يتبع أبا تمام ومعانيَه حتى يستعير مع ذلك بعض لفظه، فلا يقع إلا دونه"(١).

وقد أورد الحاتمي (ت/٣٨٨هـ) محاورةً بينه وبين مناصرٍ للبحتري، ختمها بقوله: "ولم ينصرف من المجلس حتى اعترف بتقديم أبي تمام على جميع المحدَثين"(٢)، ويشهد الحاتمي لأبي تمام بأنه "أحسنَ كلَّ الإحسان"(٣).

وعلى الرغم من أن كتاب (الوساطة بين المتنبي وخصومه) للقاضي الجُرجاني (ت/٣٩٢هـ) إنما كُتب عن المتنبي، فإن أول بيتٍ ورد ذِكره فيه كان لأبي تمامٍ، وأول حكمٍ كان على هذا البيت، حيث قال معجبًا: "صدقَ والله وأحسنَ"(٤)، ويدهَش المتلقي من تصريح القاضي الجُرجاني –وهو الناقد الحصيف الرَّزين– بقوله: "وأنا أَدينُ بتفضيله وتقديمه، وأنتحل موالاته وتعظيمه، وأراه قِبلة أصحاب المعاني، وقدوة أهل البديع"(٥)، ولا يخفى ما في اختيار كلمات مثل (أَدين، موالاة، تعظيم، قِبلة، قدوة) من إضفاء هالةٍ من القداسة على أبي تمام ونهجه.

وتجدر الإشارة إلى أنَّ أبا تمام –وهذا من غريب أمره– قد تعرض للوم والانتقاص، ليس فقط من مناوئيه، بل من جُلِّ مؤيديه؛ فقد وصفه (عبد الله بن المعتز) –في الصفحة الأولى– بالإفراط والإسراف ومجاوزة الحد(٦)، وعلى قدرِ ما

---

(١) أخبار البحتري: ص/٦٠.

(٢) حلية المحاضرة في صناعة الشِّعر، أبو علي محمد بن الحسن بن المظفر الحاتمي، تحقيق: د/ جعفر الكتاني، وزارة الثقافة والإعلام، العراق، سلسلة كتب التراث، ع/٨٢، ١٩٧٩م: ٢٢٧/١.

(٣) حلية المحاضرة في صناعة الشِّعر: ٢٠٨/١.

(٤) الوساطة بين المتنبي وخصومه، القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية، ط/٣، ١٣٧٩هـ/ ١٩٥١م: ص/١.

(٥) الوساطة بين المتنبي وخصومه: ص/١٩.

(٦) كتاب البديع، عبد الله بن المعتز، تحقيق: إغناطيوس كراتشكوفسكي، دار المسيرة، بيروت، ط/٣، ١٤٠٢هـ، ١٩٨٢م: ص/١.

مدح (القاضي الجرجاني) أبا تمام نجده يحمل عليه حملًا شديدًا، فيقول مثلًا: "فإذا سمعت بقول أبي تمام... فاسدُد مسامعك، واستغشِ ثيابَك، وإياك والإصغاء إليه، واحذر الالتفات نحوه؛ فإنه مما يُصـــدِئ القلب ويُعميه، ويَطمس البصـــيرة، ويكد القريحة"(١)، وليس بعد هذا القدح قدحٌ.

*** المناصرون للبحتري:**

لا يخلو حديث النقاد عن البحتري من الغرابة كذلك؛ فأكثر ما قيل في حقِّه –فيما طالعتُ– إنما جاء على ألسنة المفضلين لأبي تمام، وأحسبُ أنَّه ما تكلم أحدٌ عن أبي تمام –مادحًا أو ذامًّا– إلا تَّكلم عن البحتري مقرًّا بفضله، وأمَّا ما كان من اعتراضٍ على البحتري فقد جاء في عباراتٍ تخلو –غالبًا– من الحِدة التي تَسِـــمُ عبارات النقد الموجهة إلى أبي تمام من مؤيديه، فضلًا عن معارضيه.

وكما كان ابن المعتز من أشـــد مناصـــري أبي تمام كان ممن لا يَغمطون البحتري قدره، يقول: "البحتري لا يكاد يغلط لفظه إنما ألفاظه كالعسل حلاوة"(٢).

وقد عَدَّ ابن رشيق القيرواني (ت/٤٥٦هـ) البحتريَّ "أرق الناس نسيبًا، وأملحهم طريقةً"(٣)، ورأى أنَّ أبا تمام كان "يأتي بالوحشي الخشِن كثيرًا ويتكلفُ"(٤).

ومما يُلحظُ أن النقد إنما كثُر حول أبي تمام واتَّصف بالشِّدةِ البالغة باعتباره خروجًا عن المألوف وكسرًا للمعتادِ آنذاك، وأما الحديث عن البحتري فقد كان أقل وقعًا وأخف وطأةً؛ لكونه –في عُرف النَّقد وقتها– امتدادًا لخيطٍ موروثٍ معروفٍ.

ب. التَّصريح بالموازنة بينهما دون تفضيلٍ لأحدهما على الآخر:

ينضـوي الآمدي (ت/٣٧٠هـ) بكتابه (الموازنة بين شِـعر أبي تمام والبحتري) تحت هذا المسار دون منازعٍ؛ ذلك أنه كثيرًا ما ردَّد أنه سيوازن بينهما دون تفضيلٍ

---

(١) الوساطة بين المتنبي وخصومه: ص/٤١ بتصرفٍ.
(٢) رسالة في محاسن أبي تمام ومساوئه: ص/٣٠٦.
(٣) العمدة في محاسن الشِّعر وآدابه ونقده: ١١٩/٢.
(٤) العمدة في محاسن الشِّعر وآدابه ونقده: ٢٦٦/٢.

لأيهما، فقال في بداية الموازنة: "ولست أُحب أن أطلق القول بأيهما أشعر عندي"(١)، وقال: "فأما أنا فلست أُفصح بتفضيل أحدهما على الآخر"(٢)، وإذًا – وفقًا لهذين النَّصين– لا سبيل إلا الإنصاف.

إنَّ تأكيد الإنصاف والتزام الحَيدة الذي قدَّمه الآمدي لم يشفعا له على طاولة النَّقد، بل لعل تأكيده هذا كان سببًا مباشرًا وراء التَّفتيش في موازنته عن أمارات الإنصاف وملامح التَّحامل، وهكذا نَشب خلافٌ جديدٌ حول الآمدي، أهو منصفٌ كما قال؟، أم يميل إلى أحد الشاعرين، تحديدًا البحتري؟، وهو خلافٌ يدخل في صميم **(نقد النَّقد)**.

لقد بدأت سهام النَّقد تتجه إلى الآمدي منذ فترةٍ بعيدةٍ، ففي مطلع القرن السابع الهجري جهر ياقوت الحموي (ت/٦٢٦هـ) بأن الآمدي "نُسب إلى الميل مع البحتري فيما أورده، والتعصب على أبي تمام فيما ذكره... فإنه جَدَّ واجتهدَ في طمس محاسن أبي تمام، وتزيين مرذول البحتري"(٣)، وهو نصٌّ يفيد ثلاثة أمورٍ في آنٍ: أنَّ الآمدي جانَبَ الإنصاف، وأنَّ لأبي تمام محاسن، وللبحتري مساوئ.

على أنَّ المحدَثين من النقاد هم أكثر من نقَّب –اعتمادًا على تأويل عبارات الآمدي– عن نية الآمدي في هذه الموازنة، فَقَلَّ أن يكتب ناقدٌ عن قضايا النَّقد العربي القديم دون أن يَعرِض لقضية القديم والجديد في الشِّعر، وكتاب الآمدي عمدةٌ في هذا الباب، ونتج عن هذا التَّنقيب كمٌّ هائلٌ من الآراء التي تنحصر في أحد أمرين: محايدٌ، أو مائلٌ للبحتري، واتَّشحت عبارات النُّقاد بوشاحٍ سميكٍ من

---

(١) الموازنة بين شِعر أبي تمام والبحتري، أبو القاسم الحسن بن بِشر الآمدي، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة، ط/٤، ١٩٩٢م: ١/٥.

(٢) الموازنة بين شِعر أبي تمام والبحتري: ١/٦.

(٣) معجم الأدباء، ياقوت الحموي، مراجعة وزارة المعارف العمومية، مكتبة عيسى البابي الحلبي وشركاه، مِصر، الطبعة الأخيرة: ٨/٨٧، ٨٨ بتصرفٍ، وقد أورد ياقوت نصًّا لأبي الفرج منصور بن بِشر النصراني الكاتب، يوافق ما ذهب إليه، وهو: "كان الآمدي النحوي صاحب كتاب الموازنة يدَّعي هذه المبالغات على أبي تمام، ويجعلها استطرادًا لعيبه إذا ضاق عليه المجال في ذمه". معجم الأدباء: ٨/٨٤.

التَّناقض الذي لا سبيل إلى الجمع بين أطرافه، كأنَّما يفتِّش كل فريقٍ في كتابٍ مختلفٍ عن كتاب الفريق الآخر، وما هو إلا كتابٌ واحدٌ، ولكنَّ غواية التأويل لا حدود لها.

لقد أكَّد غير واحدٍ مَيلَ الآمدي إلى البُحتري، والملاحظ على عباراتهم أنها تجنح إلى التأكيد المبالَغ فيه، حتَّى لكأنَّ الآمديَّ نفسَه صرَّح بهذا المَيل مراتٍ ومراتٍ، فالآمدي "مدفوعٌ إلى البحتري دفعًا، ما من ذلك بُدٌّ، منجذبٌ إليه طوعًا أو كرهًا"(١)، ولا يخفى ما في العبارة من مؤكداتٍ تجعل المَيل يقينًا لا شكَّ فيه، ويقول آخر: "وليس مِن شكٍّ في أن الآمدي كان يؤثر طريقة البحتري ويَميل إليها"(٢)، وهي عبارةٌ لا تقلُّ عن سابقتها تأكيدًا.

وبعيدًا عن التقاط ميل الآمدي إلى البحتري ثَمَّ نبرةٌ أشد قسوة وُجهت إلى الآمدي، جعلت منه:

إمَّا متظاهرًا بالإنصاف مضمرًا الميل، فهو متعصبٌ "للبحتري من وراء حجابٍ"(٣)، و"يحاول بطريقٍ غير مباشرٍ تفضيلَ البحتريَّ على أبي تمَّام"(٤)، وتلك العبارات –فيما أحسب– تسيء الظَّن بالرَّجل، وتقدح في دِقة منهجه، وتقلل من مصداقيته التي ألحَّ عليها.

وإمَّا ذا عداءٍ شخصيٍّ لأبي تمام جعله يلقي أحكامه "جزافًا على شِعره وشاعريته"(٥)، كما أنَّ حبَّه للبحتري "قد أعماه عن حقيقة شِعر أبي تمام"(٦)، وإذا

(١) تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري: ص/١٦٦، ويُنظر: عمود الشِّعر في ميزان النقد: ص/٢٦، ٢٧.

(٢) تاريخ النقد الأدبي عند العرب: نقد الشِّعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري: ص/١٦٢، ويُنظر: من قضايا البلاغة والنقد: ص/٩.

(٣) أخبار أبي تمام: ص/١١١هـ من تقديم أ/ أحمد أمين.

(٤) الخصومة بين القدماء والمحدَثين في النقد العربي القديم – تاريخها وقضاياها: ص/٧٦.

(٥) الخصومة بين القدماء والمحدَثين في النقد العربي القديم – تاريخها وقضاياها: ص/٩١.

(٦) الخصومة بين القدماء والمحدَثين في النقد العربي القديم – تاريخها وقضاياها: ص/٩١، ويُنظر: قَضِيَّةُ المُوَازَنَةِ بَيْنَ الشُّعَرَاءِ وَتَجَلِّيَاتهَا فِي النَّقْدِ العَرَبِيِّ القَدِيم (بحث)، د/ طارق زيناي، مجلة الباحث، الجزائر، ع/٣، م/١٢، ٢٠٢٠م: ص/٢٣٠.

بكتاب الموازنة برُمته "يُشْتَمُّ في معظم موضوعاته رائحةُ هذا التحامل التي يختلط فيها أريج الذَّوق الفني بنار العداء الشخصي"(١)، ويقف المرءُ حائرًا أمام عبارة **(نار العداء الشخصي)** فضلًا عن كلمتَي **(جزافًا، أعماه)**: ما السبيل إلى معرفة هذا العداء وتوثيقه؟، وإن كان ثَمَّ عداءٌ فهل انسحب حقيقةً على الموازنة؟. إنَّ مثل هذه التَّعليقات لا تستند إلى حقائقَ ملموسةٍ، وتزعزع الثقة في خير قرون النَّقد العربي، وترمي أناسًا بأشياءَ ربما لم تجُلْ في أخلادهم البتة.

وفي الجهة المقابلة ثمَّة عباراتٌ تُلحُّ على موضوعية الآمدي، وعدم مَيله إلى فلانٍ أو على فلانٍ، وهي عباراتٌ لا تقل صرامةً وتوكيدًا عن العبارات المؤكِّدة لانحيازه إلى البحتري، وليس بين طرَفي النَّقيض مِن متوسطٍ، فناقدٌ يقول: "ليس هناك احتمالٌ واحدٌ ينفُذ منه الظنُّ إلى تعصب الآمدي ضد أبي تمام"(٢)، ويعضده آخرُ قائلًا: "وبالرجوع إلى كتاب الموازنة نفسه نجد أن المؤلف لم يتعصب للبحتري، كما لم يتعصب ضد أبي تمام"(٣)، وهكذا يفتح التأويلُ البابَ على مصراعيه أمام جمع المتناقضات حول مؤلِّفٍ واحدٍ وكتابٍ واحدٍ، ولكلٍّ سندٌ يأوي إليه، وطريقةُ استنباطٍ توجِّهُه.

لكنَّ الملاحَظَ –من خلال استقراء كلام النقاد– أنَّ الكِفة تميلُ نحو إعجاب الآمدي بطريقة البحتري الشِّعرية، وتفضيله إياها، فقد "رأى فيه صورةً حيةً للشِّعر القديم الأصيل... وانتصر له؛ لأنه أكثر التزامًا بأساليب القدماء في النَّظم"(٤)،

---

(١) الخصومة بين القدماء والمحدَثين في النقد العربي القديم – تاريخها وقضاياها: ص/٩٣.

(٢) من قضايا التراث العربي دراسة نصية نقدية تحليلية مقارنة – الشِّعر والشاعر، د/ فتحي أحمد عامر، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٨٥م: ص/٣٨، ويُنظر: من قضايا التراث العربي دراسة نصية نقدية تحليلية مقارنة – النقد والناقد، د/ فتحي أحمد عامر، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٨٥م: ص/٤٦.

(٣) النقد المنهجي عند العرب: ص/١٠٢، ويُنظر: قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث: ص/٣٧٧.

(٤) نظرية عمود الشِّعر مرحلة التأسيس وما بعد التأسيس والاكتمال (بحث)، ميمون قويدر، قراش محمد، مجلة القارئ للدراسات الأدبية والنقدية واللُّغوية، الجزائر، ع/١، م/٥، مارس ٢٠٢٢م: ص/٣٥ بتصرفٍ، ويُنظر: قضية عمود الشعر وتجلياتها في النقد العربي القديم، د/ طارق زيناي، مجلة كتامة، الجزائر، م/١، ديسمبر ٢٠٢٢م: ص/٧٩.

فالإعجاب إذًا مبرَّرٌ نقديًّا، وليس مجرد إعجاب شخصي، كما أنَّ الأمرَ لم يكن عداءً شخصيًّا لأبي تمام، إنه ارتضاءٌ لخيطٍ شِعريٍ تليدٍ، ألِفته الأسماعُ واستملحته الأذواق، فليس على المرء من بأسٍ إن هو مال إليه.

ج. عدم التَّصريح لا بالموازنة ولا بالمفاضلة:

يمكن القول –دون تجاوزٍ: إنَّ ابن سنان الخفاجي يندرج تحت هذا المسار بكتابه (سر الفصاحة)؛ فالرَّجل لم يُشِر إلى أنَّه سيفاضلُ بين الشاعرين، ولم يُقِم كتابه من أجل البحث في الموازنة، يقول عن غرضه من تأليف كتابه: "لما رأيت الناس مختلفين في مائية الفصاحة وحقيقتها؛ أودعتُ كتابي هذا طرفًا من شأنها، وجملةً من بيانها"(١)، ثم يصف كتابه بأنه: "مفردٌ في بابه، غريبٌ في غرضِه"(٢)، ولو كان للموازنة رأسًا لمَا وُصف بالتفردِ وقبلَه كتابُ الآمدي، وقد اطَّلع عليه بلا شكٍّ؛ فقد عاد إليه ونقل منه.

غير أنَّ المطالِع لكتابِ (سر الفصاحة) يلحَظُ حضورَ أبي تمَّام والبحتري بقوةٍ في أجزاء الكتاب كلِّها، ومن أوله إلى آخره، ويلحظ كذلك تفاوت العبارة النقدية الواسمة لشِعر كلٍّ من الشاعرين؛ الأمر الذي يدفع إلى التساؤل: أيمكن أن يكون لابن سِنان رأيٌ ما في حومة المفاضلة بين الشاعرين؟، وإن كان ثَمَّ رأيٌ فكيف بثَّه في تضاعيف كتابه؟، وما السبيلُ إلى استخلاصه دون تجنٍّ؟.

إنَّ مهمة هذا البحثِ مهمةٌ تأويليةٌ صِرفةٌ، استنباطيةٌ بحتةٌ، تتخذ من عبارات ابن سنان سُلَّمًا للوصول إلى إجابة هذه الأسئلة، وإن كان النقاد قد اختلفوا حول الآمدي؛ فلأنه منحهم مِفتاح الاختلاف، وهو تصريحه بالحَيدة والإنصاف، لكنَّ ابن سِنان لم يُعطِ مِفتاحًا، ولم يصرح بشيءٍ، وإنما سلكَ –فيما أحسبُ– مسلكًا مختلفًا، محسوبًا بدِقةٍ متناهيةٍ.

***

(١) سرُّ الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، تحقيق: د/ النبوي عبد الواحد شعلان، حقوق الطبع خاصة بالمحقق، دون بيانات نشر: ص/٣.

(٢) سرُّ الفصاحة، ابن سنان الخفاجي: ص/٥.

المبحثُ الأولُ
المفاضلةُ بين الشاعرين في اختيارِ الألفاظِ

وضـــع ابنُ ســـنان الخفاجي للَّفظةِ شـــروطًا ثمانيةً متَّى تحققت كانت اللفظةُ فصيحةً غاية الفصاحة[1]، وفي أثناء إرسائه لهذه الشُّروط يورد أمثلةً استحسنها، وأخرى لم تَرُقْ له، ولأبي تمام والبحتري سهمٌ وافرٌ في هذه الأمثلة.

ويرنو هذا المبحث إلى رصد ما أطلقه ابنُ سنان من أحكامٍ على الأمثلة التي استدعاها من شِعر الطائييْن (أبي تمام، البحتري)، ومحاولة استكناه ما قد تومئ إليه من مفاضلةٍ بينهما.

وقد ارتأى الباحثُ أنَّ الطريقةَ المُثلى لاستيضاح موقف ابن سِنان من شِعر الشَّاعرين أن توضع أحكامُه على أحدهما بمحازاة أحكامه على الآخر في جدولٍ واحدٍ يُظهر الفوارق بين الأحكام بصـــورةٍ جليةٍ للمتلقي، ثم يَعقُبُ الجدولَ تعليقٌ يبين أهم ما تُلمح إليه هذه المقارنة، وهي الطريقةُ المتبعةُ في ســـائرِ مباحثِ هذه الدراسة.

***

(١) يُنظر: سرُّ الفصاحة: ص/٧٣.

جدول يوضح تعليقات ابن سِنان على أشعار أبي تمَّام والبحتري في الجزء الخاص بالحديث عن فصاحة اللفظة المفردة(١)

م	الموضوع	أبو تمَّام	البحتري
١	**خُلُو اللفظة من التوعُّر والوحشية**	– عاب عليه سبعة أبيات(٢). * "واستقبحوا قول أبي تمام..."(٣). * "ولا أحبُّ أيضًا تسمية أبي تمام..."(٤). * "فهل تعرف أوعر من (صَهْصَلِق)؟!"(٥).	– عاب عليه بيتين(٦). * "فله في ذِكر (عقرقس) عذرٌ واضحٌ"(٧). * "فليس بقبح (جُؤشُوشٍ) خفاء، على أنني لم أعرف شاعرًا قديمًا ولا حديثًا أحسن سبكًا من أبي عُبادة، ولا أحذق في اختيار الألفاظ وتهذيب المعاني"(٨).
٢	**الكلمة العامِّية**	– عاب عليه أربعة أبيات(٩).	– لم يورد له شيئًا.

(١) يعتمد هذا الجدول –وكذا بقية جداول البحث– الاختصار منهجًا، فلا يورد الأبيات الشِّعرية؛ تجنبًا للإطالة، ولأن البيت في ذاته ليس هو المقصود، وإنما المقصود هو الحكم على البيت الشِّعري، وهذا ما يورده الجدول دائمًا.

(٢) يُنظر: سرُّ الفصاحة: ص/٧٧، ٧٨، ٧٩، ٨٢، ٨٨، ٨٩، ٩٠.

(٣) سرُّ الفصاحة: ص/٨٢.

(٤) سرُّ الفصاحة: ص/٨٨.

(٥) سرُّ الفصاحة: ص/٩٠.

(٦) يُنظر: سرُّ الفصاحة: ص/٨٣، ٨٩.

(٧) سرُّ الفصاحة: ص/٨٣.

(٨) سرُّ الفصاحة: ص/٨٩.

(٩) يُنظر: سرُّ الفصاحة: ص/٩٠، ٩٣، ٩٤ (بيتان).

م	الموضوع	أبو تمَّام	البحتري
		* "فـ(زَنَّى) في القبح تُوفِي على كل قبيح"(١). * وقول أبي تمام... غايةٌ في السُّخف"(٢). * "ولا يَحسُن نظمُ مثلِها"(٣).	
٣	**جريان الكلمة على العُرفِ العربي الصحيح**	– عاب عليه بيتين(٤).	– عاب عليه خمسة أبيات(٥). * "فعابوه"(٦). * "(باهت) لغةٌ رديئةٌ شاذةٌ"(٧).
٤	**استعمال الكلمة في المعنى الذي وُضعت له**	– عاب عليه ثلاثة أبيات(٨).	– مدح له بيتًا(٩). * "تجد (تَصَرَّمَ) في قول أبي عُبادة... مختارًا مَرْضيًّا"(١٠).

(١) سرُّ الفصاحة: ص/٩٣، والبيت:
لَوْ كَانَ كَلَّفَهَا عُبَيْدٌ حَاجَةً***يَوْمًا لَزَنَّى شَدْقَمًا وَجَدِيلَا (الكامل)
(٢) سرُّ الفصاحة: ص/٩٤ بتصرفٍ.
(٣) سرُّ الفصاحة: ص/٩٤.
(٤) يُنظر: سرُّ الفصاحة: ص/٩٧، ٩٩.
(٥) يُنظر: سرُّ الفصاحة: ص/٩٧ (بيتان)، ١٠٠، ١٠٥، ١٠٩.
(٦) سرُّ الفصاحة: ص/٩٧.
(٧) سرُّ الفصاحة: ص/١٠٥.
(٨) يُنظر: سرُّ الفصاحة: ص/١١٣، ١١٦ (بيتان).
(٩) يُنظر: سرُّ الفصاحة: ص/١١٥.
(١٠) سرُّ الفصاحة: ص/١١٥ بتصرفٍ، والبيت:
تَصَرَّمَ الدَّهْرُ لَا وَصْلٌ فَيُطْمِعُنِي***فِيمَا لَدَيْكَ وَلَا يَأْسٌ فَيُسْلِينِي (البسيط)

م	الموضوع	أبو تمَّام	البحتري
٥	**طولُ الكلمة وكثرة حروفها**	– عاب عليه خمسة أبيات[١]. * "فليس بقبح قوله: (بِاسْتِمَاعِكَهُ) خفاءٌ"[٢].	– لم يورد له شيئًا.

تعقيباتٌ على الجدول السابق (مجال اختيار الألفاظ بين الشَّاعريْن):

١. تفاوتُ الأبياتِ المعيبةِ كثرةً وقِلَّةً:

لقد عابَ ابنُ سِنان على أبي تمام **(واحدًا وعشرين)** بيتًا في تعامله مع الألفاظ، مقابل **(سبعة)** أبياتٍ للبحتري، وفيه –فيما أظنُّ– إلماحٌ إلى شيوع الأغلاط في شِعر أبي تمام، وقِلتها عند نظيره.

٢. اختلاف نبرة الذَّمِّ حِدَّةً ولُطفًا:

من البيِّنِ أنَّ العبارات الموجهة إلى أبي تمام –وهي أكثر مما وُجه إلى البحتري– تعلوها الحِدَّة والسُّخرية، فقد استعمل معه مشتقات الجذر **(قبح)** أربع مراتٍ، ووصفه كذلك بـ**(السخافة)**، ولجأ إلى عباراتٍ تكسوها المبالغة الشَّديدة، مثل: **(فهل تعرف أوعر من...؟، تُوفِي على كل قبيحٍ، غايةٌ في السُّخف، فليس بقبح... خفاءٌ)**.

إنَّ ابن سِنان في نقده للبحتري أهدأُ وألطفُ، فهو وإن أخذ عليه وعورة كلمة **(عَقْرَقَس)**[٣] أتبعها بالاعتذار عنه، ففيها **(عذرٌ واضحٌ)**، وإن رأى في لفظة **(جُؤْشُوش)** قبحًا ألحقها بإطراءٍ كفيلٍ بإزالة قبح قصيدةٍ كاملةٍ لا كلمة واحدة، فقال: **(لم أعرف شاعرًا قديمًا ولا حديثًا أحسن سبكًا من أبي عُبادة، ولا أحذق**

---

(١) يُنظر: سرُّ الفصاحة: ص/١١٧ (بيتان)، ١١٨ (ثلاثة أبياتٍ).

(٢) سرُّ الفصاحة: ص/١١٨، والبيت:

أَنِلْهُ بِاسْتِمَاعِكَهُ مَحَلًّا***يَفُوتُ عُلُوُّهُ الطَّرْفَ الطَّمُوحَا (الوافر)

(٣) سرُّ الفصاحة: ص/٨٣، والبيت:

وَأَنَا الشُّجَاعُ وَقَدْ رَأَيْتَ مَوَاقِفِي***بِعَقْرَقَسٍ وَالْمَشْرَفِيَّةُ شُهَّدِي (الكامل)

في اختيار الألفاظ وتهذيب المعاني)، وإن نقل كلام الناس فيه قال: **(عابوا)** مقابل **(استقبحوا)** في حق أبي تمام، وشتان بين العيب والاستقباح.

٣. تقديمُ المدحِ لطرفٍ واحدٍ:

لم يورد ابنُ سِـــنان –في حديثه عن الألفاظ– ما يُمتدحُ لأبي تمام، في الوقت الذي خلع فيه –بسخاءٍ شديدٍ– عبارات المدح والإعجاب على البحتري، فهو أحسن الشـــعراء قاطبةً ســـبكًا، وأحذقهم في اختيار الألفاظ والمعاني، بل إنه يَعِدُ المتلقي بأنه إن نظر في شِعر البحتري سيجده **(مختارًا مَرْضِيًّا)**.

٤. الابتداءُ بذِكر أبي تمام:

يفيد تتبع نقد ابن ســـنان لكلا الشـــاعرين بأنَّ أبا تمام هو الأول ورودًا –نقدًا وعيبًا عليه– في قِسـم الألفاظ؛ فعند الحديث عن اللفظ الوعْر الوحشـي، والسَّـاقط العامي[1] تجد أبا تمَّام في صـدارةِ الكلام منقودًا شِعره، ثم يأتي البحتري بعد ذلك، وربما لا يأتي، وقد يومئ هذا إلى أنَّ أبا تمام –في نظر ابن سِـــنان– مقدَّمٌ في الغلط على البحتري.

٥. إرساء القاعدة عَقب اللَّومِ والأخذِ:

من اللافت للانتباه أن ابن سِـــنان يحاول –وإن أردنا الدِّقة (يتعمد)– إرســـاء القاعدة بعد العيب على أبي تمام، وكأنه يتحين الفرصة لإثبات مدى مخالفته لتلك القاعدة، وفي ذلك مزيد تشنيع على المخالف، فعل ذلك ثلاث مراتٍ في حديثه عن فصاحة اللفظة:

الأولى: يقول ابن سِنان في أثناء حديثه عن وعورة اللفظ ووحشيته:

"ولا أحب أيضًا تسمية أبي تمام صاحبه (عُلاثة) بالترخيم في قوله:

قِفْ بِالطُّلُولِ الدَّارِسَاتِ عُلَاثَا***أَضْحَتْ جِبَالُ قَطِينِيهِنَّ رِثَاثَا **(الكامل)**

وإن كان الرَّويُّ قاده إلى ذلك، فليت شِعري مَن حظَر عليه القوافي واقتصر به على الثاء دون غيرها من الحروف!، وليس يُؤثَر منه إلا الشِّعر الحسن على أقرب الوجوه وأسهل السُّبل، دون ما يَتكلف المشقة في نَظمه والعناء في تكليفه.

---

(١) يُنظر: سرُّ الفصاحة: ص/٧٧، ٩٠.

وليس يُغفر للشاعر لأجل ما يُلزم به نفسه ذنبٌ، ولا يُغفل له عن خطاءٍ؛ إذ كان حظَر المباح، وحرَّم الحلال، واعتمد تكلف النَّصَب طوعًا واختيارًا، وهوى وقصدًا"(١).

ويلمح المتأمل لهذه القاعدة: أنَّ بها **مسحةً** من الهُزء بأبي تمام، يتمثل في تعجبه (**فليت شِعري مَن حظَر عليه القوافي...**)، وأنها كأنما حيكت على مقاس أبي تمَّام وحده، وأنها جعلت من المخالف (أبي تمام) مقارفًا لذنبٍ عظيمٍ قد يستوجب عقوبةً مغلَّظةً للعفو عنه، إنْ كان ثَمَّ عفوٌ، يرشِّح هذا عباراتٌ مثل: (**وليس يُغفر... ذنبٌ، ولا يُغفل... عن خطاءٍ، حظَر المباح، حرَّم الحلال**)، وهكذا يشعر القارئ أنَّ اختيار لفظة وعْرةٍ وحشيةٍ تحوَّل إلى خطيئةٍ في الدِّين لا تُغتفرُ، وإن كانت خطايا الدِّين -مهما جَلَّت- تُغتفرُ.

الثانية: يقول ابن سِنان في نهاية حديثه عن وُعورة اللفظ ووحشيته:

"ومن ذلك أيضًا قول أبي تمام:

صَهْصَلِقٌ فِي الصَّهِيلِ تَحْسَبُهُ***أُشْرِجَ حُلْقُومُهُ عَلَى جَرَسِ (**المنسرح**)

... فهل تعرف أوعر من صَهْصَلِق؟!...

وعلى كل حالٍ فالبدويُّ صاحب الطَّبع في هذا الفن أعذرُ من القَروي المتكلف؛ لأنَّ هذا لا يَعرف الألفاظ إلا بعد البحث والطلب وتجشُّم العناء في التصفح، وعلى قدْر ذلك يجب لومه والإنكار عليه"(٢).

وغالب الظَّنِّ أنَّ هذا (**القروي المتكلِّف**) هو أبو تمَّام؛ فمعروفٌ عنه أنه كان يدقق في الصِّياغة ويتكلفها، وواضحٌ -للمرة الثانية- أنه قارَف منكرًا (**يجب لومه والإنكار عليه**).

الثالثة: يقول ابن سِنان عند حديثه عن اللفظة العامية:

"وقول أبي تمام:

قَدْ قُلْتُ لَمَّا لَجَّ فِي صَدِّهِ***اعْطِفْ عَلَى عَبْدِكَ يَا قَابِرِي (**السريع**)

غايةٌ في السخافة؛ لأن (قابري) من ألفاظ عوام النساء وأشباههن.

---

(١) سرُّ الفصاحة: ص/٨٨.

(٢) سرُّ الفصاحة: ص/٨٩، ٩٠ بتصرفٍ.

وليس لأحدٍ أن يتخيل أن العذر في إيراد هذه الألفاظ وأمثالها تعذُّرُ ما يقع موقعها في النَّظم، كما يظن ذلك بعضُ المتخلفين في هذه الصناعة؛ وذلك أنه ليس يجب على الإنسان أن يكون شاعرًا ولا كاتبًا ولا صاحب كلام يُؤثر ولفظ يُروى، ولا يجب عليه لو وجب هذا أن يَنظم تلك القصيدة التي وردت فيها هذه اللفظة ولا البيت من القصيدة، فكيف نعذره إذا أورد لفظةً قبيحةً جاريةً مجرى ما ذكرناه وهو قادرٌ على حذف البيت كله واطراح ذِكر جميعه، إن لم يكن قادرًا على تبديل كلمةٍ منه.

ونعود إلى ذِكر الألفاظ العامية"[1].

لقد قَطع ابنُ سِنان مجرى الكلام؛ لينتهز فرصة العَيب على أبي تمام، ثم استأنف قائلًا: **(ونعود إلى ذِكر الألفاظ العامية)**، ولو أنَّه لم يكن يقصد أبا تمام قصدًا لجعل تعليقاته عقب الانتهاء من إيراد الأمثلة المعيبة فكلها سواء في هذا العيب أو ذاك؛ فيكون تعليقًا ختاميًّا لا يخص بيتًا ولا شاعرًا، وإنما يشمل الجميع بلا تفريقٍ.

٦. تتابعُ الأبياتِ المعيبةِ بلا فاصلٍ:

دأبَ ابنُ سِنان على المولاة بين الأبيات المأخوذة على أبي تمام بلا فاصلٍ[2]، وليس يفعل هذا من البُحتري، وفي هذا -ظنًّا منِّي- إلماحٌ إلى تفشِّي العيب في شِعر أبي تمام، وأنه يقع عرَضًا لدى البحتري.

٧. إفساح المجال لأبي تمام وحده:

ثَمَّة عيوبٌ في اختيار اللفظةِ خلت من ذِكر البحتري، مثل: **(الكلمة العامِّية، طول الكلمة وكثرة حروفها)**، في الوقت الذي حضر فيها أبو تمَّام بقوةٍ؛ ففي **(الكلمة العامِّية)** عِيب عليه أربعة أبياتٍ، وفي **(طول الكلمة وكثرة حروفها)** عِيب عليه خمسة أبياتٍ، وأحسب أن مثل هذا السُّلوك يُسهم في إبراز موقف ابنِ سِنان من أبي تمَّام والبحتري.

---

(١) سرُّ الفصاحة: ص/٩٣، ٩٤.

(٢) فعل ذلك ثلاث مراتٍ في قِسم فصاحة الألفاظ؛ الأولى: ص/٧٨، ٧٩ (بيتان)، ص/١١٦ (بيتان)، ص/١٨ (ثلاثة أبياتٍ).

المبحثُ الثاني
المفاضلةُ بين الشاعرين في تأليف الكلام

يشرعُ ابنُ سِنان في القِسم الثَّاني من كتابه **(سر الفصاحة)** في الحديث عن شروط فصاحة الكلام/ التأليف، وقد بنى هذا القِسم على ما أقره في القِسم الأول من شروطٍ، يقول: "القِسمُ الثاني من الفصاحة صفاتٌ توجد في التأليف، ونعتبرُ ما يتفق فيه من الأقسام الثمانية المذكورة في اللفظة المفردة"(١).

ولا تزال أشعارُ أبي تمام والبحتري حاضرةً في هذا القِسم، لا تُخطئها العينُ، كأنما ابن سِنان قد جعل منهما عمودين لا غنى عنهما في كتابه هذا، حتى لتراه ينوع في التعبير عنهما، فتارةً يقول: أبو تمام(٢)، وأخرى: حبيب بن أوس(٣)، وثالثةً: الطائي الكبير(٤)، ورابعةً: أبو تمام حبيب بن أوس(٥)، وتارةً يقول: البحتري(٦)، وأخرى: أبو عبادة(٧)، وثالثةً: أبو عبادة البحتري(٨).

وعلى خُطى المبحث السابق يسيرُ هذا المبحث راصدًا نقدَ ابن سِنان للطَّائيْن.

***

(١) سرُّ الفصاحة: ص/١٣٠، ١٣١.
(٢) يُنظر على سبيل المثال: سرُّ الفصاحة: ص/٧٧، ٧٨، ٨٢.
(٣) يُنظر على سبيل المثال: سرُّ الفصاحة: ص/٩٥، ٣٠٠، ٣٠٢.
(٤) يُنظر: سرُّ الفصاحة: ص/١٦٠، وهو أبو تمام.
(٥) يُنظر على سبيل المثال: سرُّ الفصاحة: ص/١٧٠، ٢٨٤.
(٦) يُنظر على سبيل المثال: سرُّ الفصاحة: ص/٨٣، ٨٩، ١٠٥.
(٧) يُنظر على سبيل المثال: سرُّ الفصاحة: ص/٩٧، ١٠٠، ١١٥.
(٨) يُنظر على سبيل المثال: سرُّ الفصاحة: ص/١٩٥، ٢٦٤، ٢٩٨.

جدول يوضح تعليقات ابن سِنان على أشعار أبي تمام والبحتري في الجزء الخاص بالحديث عن تأليف الكلام

م	الموضوع	أبو تمَّام	البحتري
١	**تجنب تكرار الحروف المتقاربة في تأليف الكلام**	– عاب عليه بيتين(١). * "وقد كان بعضُ العلماء بالشِّعر يَعيب في قول أبي تمام..."(٢).	– لم يورد له شيئًا.
٢	**الكلام المقلوب المفسد للمعنى**	– عاب عليه بيتًا واحدًا(٣).	– لم يورد له شيئًا.
٣	**الاستعارة**	– عاب عليه تسعة أبيات(٤). – مدح له بيتًا واحدًا(٥).	– مدح له بيتين(١٢). * "وأما قول أبي عبادة البحتري... فلَعَمري إن هذه المقابلةُ الصحيحةُ"(١٣).

(١) يُنظر: سرُّ الفصاحة: ص/١٣٢، ١٣٨.
(٢) سرُّ الفصاحة: ص/١٣٨.
(٣) يُنظر: سرُّ الفصاحة: ص/١٦٠.
(٤) يُنظر: سرُّ الفصاحة: ص/١٧٦، ١٧٩ (ثلاثة أبياتٍ)، ١٩٢، ٢٠٨ (أربعة أبياتٍ).
(٥) يُنظر: سرُّ الفصاحة: ص/١٧٨.
(١٢) يُنظر: سرُّ الفصاحة: ص/١٩٥.
(١٣) سرُّ الفصاحة: ص/١٩٥ بتصرفٍ، والبيتان:
وَكُنْتُ إِذَا اسْتَبْطَأْتُ وُدَّكَ زُرْتُهُ***بِتَفْوِيفِ شِعْرٍ كَالرِّدَاءِ الْمُحَبَّرِ
عِتَابٌ بِأَطْرَافِ الْقَوَافِي كَأَنَّهُ***طِعَانٌ بِأَطْرَافِ الْقَنَا الْمُتَكَسِّرِ (الطويل)

م	الموضوع	أبو تمَّام	البحتري
		* "وممن أكثر استعماله أبو تمام حبيبُ بن أوس، فورد منه في شِعره الجيدُ المحمودُ، والرديءُ الذي هو الغايةُ في القبح، وسأذكر في شِعره خاصةً ما يُستدلُّ به على ذلك"(١). * "وقد كنتُ مثَّلتُ في بعض المواضع الاستعارةَ المحمودةَ والمذمومةَ ببيتين: أحدهما قول أبي نصر بن نُباتة... من أشبه الاستعارات وأليقها.... والبيت الثاني قول أبي تمام... من أقبح الاستعارات"(٢). * "وأما قول أبي تمام... فمن الاستعارة المختارة"(٣).	* "والبحتري على كل حالٍ محسنٌ"(٩).

(١) سرُّ الفصاحة: ص/١٧٠.

(٢) سرُّ الفصاحة: ص/١٧٥، ١٧٦ بتصرفٍ. وبيت أبي نصر بن نُباتة:

حَتَّى إِذَا بُهَرُ الْأَبَاطِحِ والرُّبَا***نَظَرَتْ إِلَيْكَ بِأَعْيُنِ النُّوَّارِ (الكامل)

وبيت أبي تمام:

قَرَّتْ بِقُرَّانَ عَيْنُ الدِّينِ وَانْتَشَرَتْ***بِالْأَشْتَرَيْنِ عُيُونُ الشِّرْكِ فَاصْطَلَمَا (البسيط)

(٣) سرُّ الفصاحة: ص/١٧٨، ١٧٩ بتصرفٍ، والبيت:

أَيَّامُنَا مَصْقُولَةٌ أَطْرَافُهَا***بِكَ وَاللَّيَالِي كُلُّهَا أَسْحَارُ (الكامل)

(٩) سرُّ الفصاحة: ص/١٩٦.

م	الموضوع	أبو تمَّام	البحتري
		* "فإن أَخَادِعَ الدهرِ والشتاءِ من أقبح الاستعارات وأبعدها مما استعيرت له، وليس بقبح ذلك خفاءٌ"(١). * "فإنَّ استعارةَ القَدِّ لصُرُوف النَّوى من أبعد ما يقع في هذا الباب وأقبحه"(٢). * "وما زال الناس ينكرون قول أبي تمام..."(٣).	
٤	**وضع الكلام في غير موضعه**	- عاب عليه ثلاثة أبيات(٧). * "كلامٌ ضعيفٌ ها هنا، فعلى هذا النحو يكون وضع الألفاظ في غير	- لم يورد له شيئًا.

(١) سرُّ الفصاحة: ص/١٧٩، والأبيات:

يَا دَهْرُ قَوِّمْ مِنْ أَخْدَعَيْكَ فَقَدْ***أَضْجَجْتَ هَذَا الْأَنَامَ مِنْ خُرَقِكْ (المُنْسَرح)

فَضَرَبْتَ الشِّتَاءَ فِي أَخْدَعَيْهِ***ضَرْبَةً غَادَرَتْهُ عَوْدًا رَكُوبَا (الخفيف)

سَأَشْكُرُ فَرْجَةَ اللَّبَبِ الرَّخِيِّ***وَلِينَ أَخَادِعِ الدَّهْرِ الْأَبِيِّ (الوافر)

(٢) سرُّ الفصاحة: ص/١٩٢، والبيت:

وَكَمْ أَحْرَزَتْ مِنْكُمْ عَلَى قُبْحِ قَدِّهَا***صُرُوفُ النَّوَى مِنْ مُرْهَفٍ حَسَنِ الْقَدِّ. (الطويل).

(٣) سرُّ الفصاحة: ص/٢٠١، والبيت:

لَا تَسْقِنِي مَاءَ الْمَلَامِ فَإِنَّنِي***صَبٌّ قَدْ اسْتَعْذَبْتُ مَاءَ بُكَائِي (الكامل)

(٧) يُنظر: سرُّ الفصاحة: ص/٢١١ (بيتان)، ٢١٢.

م	الموضوع	أبو تمَّام	البحتري
		موضـــعها... فتأمله وقِس غيره عليه"[١].	
٥	**الكلمةُ تقعُ حشوًا**	– عاب عليه بيتين[٢].	– لم يورد له شيئًا.
٦	**المعاظلة**	– عـاب عليـه ثلاثـة أبيات[٣]. * "فـهـذا هـو حـقـيـقـة المعاظلة"[٤].	– لم يورد له شيئًا.
٧	**استعمال الألفاظ اللائقة بكلِّ غرضٍ**	– عـاب عليـه أربـعـة أبيات[٥].	– لم يورد له شيئًا.
٨	**استعمال ألفاظ المِهن والعلوم**	– عـاب عليـه ثلاثـة أبيات[٦].	– لم يورد له شيئًا.
٩	**المناسبة بين الألفاظ**	– مدح له بيتًا[٧].	– مدح له بيتًا[٨].

(١) سرُّ الفصاحة: ص/٢١٢ بتصرفٍ.
(٢) يُنظر: سرُّ الفصاحة: ص/٢٢١، ٢٢٤.
(٣) يُنظر: سرُّ الفصاحة: ص/٢٣٢ (ثلاثة أبياتٍ).
(٤) سرُّ الفصاحة: ص/٢٣٢.
(٥) يُنظر: سرُّ الفصاحة: ص/٢٣٦ (ثلاثة أبياتٍ)، ٢٣٨.
(٦) يُنظر: سرُّ الفصاحة: ص/٢٤٦ (بيتان)، ٢٤٩.
(٧) يُنظر: سرُّ الفصاحة: ص/٢٥٢.
(٨) يُنظر: سرُّ الفصاحة: ص/٢٥٢.

م	الموضوع	أبو تمَّام	البحتري
١٠	**القوافي المتمكنة**	– لم يورد له شيئًا.	– مدح له قصيدةً (سبعة أبياتٍ)[١].
١١	**ابتداءُ القصائد**	– لم يورد له شيئًا.	– أورد ذمًّا لمطلع قصيدة، وحاول التَّقليل من خطره، قال: "وبعض الناس يرى..."[٢].
١٢	**الجناسُ**	– مدح له ثلاثة أبياتٍ[٣]. – عاب عليه خمسة أبياتٍ[٤]. * "وقع له الجيد والرديء الذي لا غاية وراءه في القبح"[٥].	– أورد له خمسة أبياتٍ على سبيل التَّمثيل[٦].
١٣	**المطابق**	– عاب عليه بيتين[٧]. * "فأما المتكلفُ القبيحُ فكقول حبيب بن أوس... وقوله..."[٨].	– مدح له بيتًا[٩]. * "وهذه هي ديباجة أبي عبادة المعروفة، وكلامه

(١) يُنظر: سرُّ الفصاحة: ص/٢٥٦، ٢٦٦.
(٢) سرُّ الفصاحة: ص/٢٧٠.
(٣) يُنظر: سرُّ الفصاحة: ص/٢٨٨ (ثلاثة أبياتٍ).
(٤) يُنظر: سرُّ الفصاحة: ص/٢٨٩ ((خمسة أبياتٍ).
(٥) سرُّ الفصاحة: ص/٢٨٤.
(٦) يُنظر: سرُّ الفصاحة: ص/٢٩١، ٢٩٢ (بيتان)، ٢٩٣ (بيتان).
(٧) يُنظر: سرُّ الفصاحة: ص/٣٠٢، ٣٠٣.
(٨) سرُّ الفصاحة: ص/٣٠٢ بتصرفٍ.
(٩) يُنظر: سرُّ الفصاحة: ص/٢٩٨.

م	الموضوع	أبو تمَّام	البحتري
			الســـهل الممتنع، وشِـــعره الخَضِل لكثرة مائه"[١].
١٤	**المخالف**	– عاب عليه بيتًا[٢]. * "ومن قبيح المخالف قول أبي تمام..."[٣].	– لم يأخذ عليه شيئًا.
١٥	**الإيجاز والاختصار**	– لم يورد له شيئًا.	– مدح له بيتًا[٤].
١٦	**وضوح معنى الكلام**	– أورد نصًّـــا طويلًا يُلمح فيــه إلى غموض عــامــة شِعره[٥].	* "فأمثله الكلام الذي يظهر معنــاه ولا يُحتــاج إلى الفكر في اســـتخراجه كثيرةٌ، وعامة شِـــعر أبي عبــادة البحتري عليه"[٦].
١٧	**الإرداف**	– لم يورد له شيئًا.	– مدح له بيتًا[٧]. * "فعلى هذا السبيل يُستحسنُ الإردافُ"[٨].

***

(١) سرُّ الفصاحة: ص/٢٩٨.
(٢) يُنظر: سرُّ الفصاحة: ص/٣٠٥
(٣) سرُّ الفصاحة: ص/٣٠٥.
(٤) يُنظر: سرُّ الفصاحة: ص/٣٢١.
(٥) يُنظر: سرُّ الفصاحة: ص/٣٣٨–٣٤٠.
(٦) سرُّ الفصاحة: ص/٣٤٠.
(٧) يُنظر: سرُّ الفصاحة: ص/٣٤٥.
(٨) سرُّ الفصاحة: ص/٣٤٥.

تعقيباتٌ على الجدول السابق (مجال تأليف الكلام بين الشَّاعريْن):

١. الإيغالُ في الحطِّ من شِعر أبي تمَّام:

لقد زادت حدةُ ابن سِنان في هذا القِسمِ على أبي تمام، فذمَّ له خمسةً وثلاثينَ بيتًا، في مقابل ذم مطلعٍ واحدٍ للبحتري، وحتى هذا المطلع المذموم للبحتري حاول ابن سِنان التخفيف من حدته، فصدَّره بقوله: **(وبعض النَّاس يرى...)**، فهم ناسٌ لا اتصـــاف لهم بعلمٍ أو نقدٍ، وهم قِلةٌ في الوقت ذاته **(بعض)**، لكنه مع أبي تمَّام يقول: **(وقد كان بعضُ العلماء بالشِّـــعر يَعيب في قول أبي تمام...)**، فإن كانوا **(قِلة/ بعض)** فهم من **(أهل العِلم بالشِّـــعر)**، مما يضـــفي على حكمهم مزيدًا من الاهتمام والجدية، أو يقول: **(وما زال الناس ينكرون قول أبي تمام...)**، فيصـفهم بالكثرة **(جنس الناس)** وفيهم لا شك العالم وغيره، وهكذا تتجاوب الأصداء على ذم أبي تمَّام.

إنَّ ابنَ سِـــنان يســـتعمل مع أبي تمَّام –في هذا القســـم بكثرةٍ– عباراتٍ مثل: **(الغاية في القبح، من أقبح الاســـتعارات، وليس بقبح ذلك خفاءٌ، لا غاية وراءه في القبح، المتكلفُ القبيحُ، من قبيح المخالف)**، فإذا بهذه الأحكام تلف أبا تمام، وتؤثر قطعًا في عقلية المتلقي أيما تأثيرٍ.

بل إنَّ ابن سِنان ليصرح في مطلع حديثه عن الاستعارات القبيحة الرديئة بأنه سـيخص أبا تمام بالذِّكر، يقول: "وسـأذكر في شِـعره خاصـةً ما يُسـتدلُّ به على ذلك"[١]، وقد عاب عليه **(تسعة)** أبياتٍ، وهو أكثر بابٍ عابه عليه، ولم يعب على البحتري فيه بيتًا واحدًا.

---

(١) سرُّ الفصاحة: ص/١٧٠.

لقد بُدئ بأبي تمام في كثيرٍ من فروع هذا القِسم[١]؛ أخذًا عليه، وأُفردَ بالذِّكر دون البحتري في العديد من أبوابه[٢]، وهذا وذاك يُسهمان في إحكام القبضة حول أبي تمام.

٢. الإفصاحُ عن الموقفِ من الشَّاعرين:

لئن حاول ابنُ سِنان الاستتارَ وراء الأحكام في القسم الأول **(فصاحة الألفاظ)** وعدم الإدلاء برأية صراحةً في الشاعرين، فهو في هذه القسم **(تأليف الكلام)** أكثر جرأةً في التَّعبير عن رأيه في هذه الخصومة.

يقول ابن سِنان عند حديثه عن شيوع البديع في أشعار المحدَثين: "ثم جاء المحدَثون فلهج به منهم مسلم بن الوليد الأنصاري، وأكثر منه ومن استعمال المطابق والمخالف، وهذه الفنون المذكورة في صناعة الشَّعر حتى قيل عنه: إنه أول من أفسد الشِّعر، وجاء أبو تمام حبيب بن أوس بعده فزاد على مسلم في استعماله والإكثار منه"[٣]، إنَّ هذا النَّصَّ –فيما يبدو لي– يُفصح بلا مواربةٍ عن رأي ابن سِنان في أبي تمام، فإن كان مُسلمٌ هو أول من أفسد الشِّعر؛ لإكثاره من البديع، وأبو تمام قد فاقه في الإكثار من البديع؛ فالنتيجة الحتمية أنَّ أبا تمام ليس كمسلم فقط في الإفساد، بل يزيد عليه.

وفي المقابل يَظهر البحتري بوصفه الشَّاعرَ الأثيرَ لابن سِنان، يظهر هذا من تصريحاتٍ مثل:

---

(١) يُنظر: سرُّ الفصاحة: (التأليف المتنافر: ص/١٣١)، (استخدام الألفاظ في غير مواضعها: ص/٢١١)، (الحشو: ص/٢٢١)، (المعاظلة: ص/٢٣٢)، (استعمال ألفاظ الذم في موضع المدح: ص/٢٣٦)، (ألفاظ المهن والعلوم: ص/٢٤٦).

(٢) يُنظر: سرُّ الفصاحة: (تكرار الحروف المتقاربة: ص/١٣١)، (الكلام المقلوب: ص/١٥٨)، (استخدام الألفاظ في غير مواضعها: ص/٢١٠)، (الحشو: ص/٢٢١)، (المعاظلة: ص/٢٣٠)، (الألفاظ المناسبة للغرض: ص/٢٣٥)، (ألفاظ المهن والعلوم: ص/٢٤٥)، (المخالف: ص/٣٠٤).

(٣) سرُّ الفصاحة: ص/٢٨٤.

- "والبحتري على كل حالٍ محسنٌ"(١)، كأنه يقول: وليس يسيء البحتري أبدًا، أو: وليست تراه عيني إلا محسنًا.
- "وهذه هي ديباجة أبي عبادة المعروفة، وكلامه السهل الممتنع، وشِعره الخَضِل لكثرة مائه"(٢)، ففي كلمة **(المعروفة)** إشارةٌ صريحةٌ إلى ذيوع صيت طريقة البحتري، حتى لكأنها لا تحتاج إلى مزيد بيانٍ.
- "فأمثله الكلام الذي يظهر معناه ولا يُحتاج إلى الفكر في استخراجه كثيرةٌ، وعامة شِعر أبي عبادة البحتري عليه"(٣).

إنَّ مِثل هذه الإشارات الواضحة المعنى تمثل –لدى الباحث– دعامةً قويةً لما يظنه من ميلٍ إلى البحتري وتفضيل له على أبي تمَّام من وجهة نظر ابن سِنان.

٣. الاستقواء بآراء النُّقَّاد في الطَعن على أبي تمام:

لجأ ابن سِنان –فيما أحسب– إلى النقاد قبله؛ استقواءً بهم على أبي تمام، وتأييدًا لِما يذهب إليه من الأخذ عليه، فإذا رأى ابنُ سِنان أن أبا تمامٍ متكلفٌ ناصرَه **إسحاقُ بن إبراهيم الموصلي (ت/٢٣٥هـ)** فقال له لمَّا سمع له شِعرًا: "لقد شققتَ على نفسك يا أبا تمَّام، والشِّعر أسهل من هذا"(٤).

وكثيرًا ما استدعى ابنُ سِنان **الآمديَّ**(٥) ليشاركه الطعنَ على أبي تمام، من ذلك:

---

(١) سرُّ الفصاحة: ص/١٩٦.

(٢) سرُّ الفصاحة: ص/٢٩٨.

(٣) سرُّ الفصاحة: ص/٣٤٠.

(٤) سرُّ الفصاحة: ص/١٣٢.

(٥) للآمدي مكانةٌ رفيعةٌ عن ابن سِنان، وفي ذلك يقول: "ولو كنت أسكن إلى تقليد أحدٍ من العلماء بهذه الصناعة، أو أجنح إلى اتباع مذهبه من غير نظرٍ وتأملٍ لم أعدل عما يقوله أبو القاسم؛ لصحة فكره، وسلامة نظره، وصفاء ذهنة، وسعة عِلمه". سرُّ الفصاحة: ص/١٧٤، ومعلومٌ –كما أشرنا في صدر هذا البحث– أنَّه كثيرًا ما لوحظ على الآمدي ميلُه الشديد إلى البحتري وحملُه على أبي تمام، ويمكن القول بناءً على ذلك: إنه ليس مستبعدًا أن يكون ابنُ سِنان متأثرًا بالآمدي في نظرته تلك.

- عند الكلام على فساد المعنى بسبب استخدام اللفظ في غير موضعه، قال: "وعلى هذا حمل أبو القاسم الآمدي قولَ الطائي الكبير"(١)، ثمَّ عقَّب على كلامه قائلًا: "وهذا الذي ذكره الشَّيخ أبو القاسم –رحمه الله– قولُ مثله ممن يتقدم الناس في هذا العِلم، ودقيق النَّظر فيه، وكشف سرائره"(٢)، فكأنما يلفت انتباه المتلقي إلى أنَّ الأخذ على أبي تمام أمرٌ قارٌّ عند العلماء الأثبات.
- عند الحديث عن المعاظلة، قال: "والصحيح من تمثيل ذلك ما ذكره أبو القاسم الآمدي، وهو قول أبي تمام..."(٣)، ثم قال معقبًا على كلام الآمدي: "وهذا الذي ذكره أبو القاسم –رحمه الله– صحيحٌ، ويجب أن يُقتدى به في هذا الباب"(٤).
- لمَّا تحدَّث عن ألفاظ أصحاب المِهن والعلوم أورد تعليق الآمدي على بيتٍ لأبي تمام: "هذا كأنه من كلام خالد الحدَّاد"(٥)، وهو تعليقٌ قاسٍ يُخرجُ أبا تمام من تشكيل الشِّعر إلى تشكيل الحديد.

وقد أورد ابنُ سِنان –عند الحديث عن الغموض– محاورةً بين **أبي العَمَيْثَل** (ت/٢٤٠هـ) وأبي تمام، استهلها أبو العَمَيْثَل بسؤالٍ لأبي تمام: "لمَ لا تقول من الشِّعر ما يُفهم؟"(٦)، وهو سؤالٌ لا شكَّ يشير صراحةً إلى إغراق أبي تمام في الغموض، حتى إنَّ شاعرًا مجيدًا كأبي العَمَيثَل لا يفهمه.

إنَّ ابن سِنان بسلوكه هذا يرنو –في ظني– إلى إثبات أنَّ الطَّعن على أبي تمام ليس تعصبًا منه وهوًى، بل هو ديدن السابقين؛ إبراءً لساحته، وتضخيمًا لما وقع فيه الشاعر.

---

(١) سرُّ الفصاحة: ص/١٦٠.
(٢) سرُّ الفصاحة: ص/١٦١.
(٣) سرُّ الفصاحة: ص/٢٣٢.
(٤) سرُّ الفصاحة: ص/٢٣٤.
(٥) سرُّ الفصاحة: ص/٢٥٠.
(٦) سرُّ الفصاحة: ص/٣٣٩.

٤. الانتقال من نقد الإبداع إلى نقد المبدع:

لا يمكن للمرء –في كثيرٍ من الأحايين– إخفاء تحيزه، ففي لحظةٍ ما تَظهر القناعات الذاتية والميُول الشخصية، مهما ادعى صاحبها من حيادٍ، ومهما أظهر من موضوعيَّةٍ.

لقد كان طبيعيًّا أن يوجه ابنُ سِنان عبارات النَّقد إلى شِعر أبي تمامٍ –مع تحفظٍ شديدٍ على المبالغة في الذَّم– لكنْ أنْ تنغرزَ سهامُ نقده في شخص أبي تمام دون البحتري؛ فأحسب أنَّ هذا من أدل أمارات الرفض له: ذاتًا وإبداعًا، وأحسبه كذلك نأيًا عن الإنصاف والحيدة.

ثمةَ نصوصٌ في **(سر الفصاحة)** تبدأ من نقد الشِّعر وتنتهي بنقد الشاعر، من ذلك:

- "ولا يعرف أبو تمام الوجه الذي لأجله جعل للشتاء والدهر أخادع إلا سوء التوفيق"(١)، فكأن أبا تمام إنما يقول الشِّعر خبط عشواء، على غير عِلمٍ ولا هَدْيٍ!، وهذا ناءٍ جدًّا عن الحقيقة؛ فمعلومٌ أنَّ أبا تمام هو أستاذُ البحتري، بشهادة البحتري نفسه(٢)، بل "إن المطلع على تاريخ حياة أبي تمام يتضح له أنه أكثر استيعابًا للشِّعر القديم ووعيًا له من البحتري نفسه"(٣).
- "فإنَّ استعارة **(القَدِّ)** لصروف النَّوى من أبعد ما يقع في هذا الباب وأقبحه، وإنما يقود أبا تمام إلى هذا وأمثالِه رغبتُه في الصنعة، حتى كأنه يعتقد أن

---

(١) سرُّ الفصاحة: ص/١٧٩، والأبيات هي:

يَا دَهْرُ قَوِّمْ مِنْ أَخْدَعَيْكَ فَقَدْ***أَضْجَجْتَ هَذَا الْأَنَامَ مِنْ خُرَقِكْ (المنسرح)

فَضَرَبْتَ الشِّتَاءَ فِي أَخْدَعَيْهِ***ضَرْبَةً غَادَرَتْهُ عَوْدًا رَكُوبَا (الخفيف)

سَأَشْكُرُ فَرْجَةَ اللَّبَبِ الرَّخِيِّ***وَلِينَ أَخَادِعِ الدَّهْرِ الْأَبِيِّ (الوافر)

(٢) يُنظر: أخبار البحتري: ص/٥٥–٧٠، وفيه يقول البحتري عن أبي تمام: "كان أول أمري في الشِّعر ونباهتي فيه أني صرت إلى أبي تمام وهو بحِمص، فعرضت عليه شِعري" ص/٥٦، ويقول عنه حين فضله أحدهم على أبي تمام: "كلا، والله ذاك الأستاذ الرئيس" ص/٥٧، "ولكني والله تابعٌ له، لائذٌ به، آخذٌ منه" ص/٦٠.

(٣) الخصومة بين القدماء والمحدَثين في النقد العربي القديم – تاريخها وقضاياها: ص/٨٤.

الحُسن في الشِّعر مقصورٌ عليها؛ فيورد منه لأجل التكلف ما لا غاية لقبحه، ويسعده الخاطر في بعض المواضع فيأتي بالعجائب الغرائب"(١)، وهنا يبدو الغوص إلى أبعد درجةٍ في مكامن أبي تمام، في اعتقاده وخاطره، ولو أنَّ ابن سِنان كان معاصرًا له؛ لأمكن القول: إنَّ ابن سِنان عايشه عن قُربٍ، وعلِم من سريرته ما علِم، أَمَا وبين الرجلين قرنان من الزمان فلا سبيل إلا الظَّنّ، وإنَّ الظنَّ لا يغني من الحق شيئًا.

- "لكن أعوز الكمالُ، واستولى الخلل على هذه الطباع، فالمحمود من كانت سيئاته مغمورةً بحسناته وخطؤه يسيرًا في جانب صوابه"(٢)، وإذًا فأبو تمام هو المذموم؛ حيث فاقت سيئاتُه -في نظر ابن سِنان- حسناتِه، فليس بعد استيلاء الخلل على طبع أبي تمام من مزيدِ قدحٍ!.
- "وله من هذا الجنس(٣) أبياتٌ كثيرةٌ، والسبب في ذلك أنه أحب الإكثار، ولم يقنع باليسير الذي يسمح به خاطره ويقع بغير تكلفٍ ولا تعمُّلٍ"(٤)، ومرةً أخرى يسمح لنفسه بالحكم على شيءٍ لا يمكن للمرء إدراكُه إلا إذا صرح به صاحبُه، وهو **(الحُبُّ)**.

ويبدو أن أبا تمام كان يمثلُ مثيرًا قويًّا لحاسة ابنِ سِنان، في كلِّ ما يتعلق به، فلما علَّق على مجيء كلمة **(جاسم)** في قول عَدِي بن الرِّقَاع العَاملي:

وَكَأَنَّهَا بَيْنَ النِّسَاءِ أَعَارَهَا***عَيْنَيْهِ أَحْوَرُ مِنْ جَآذِرِ جَاسِمِ **(الكامل)**

بقوله: "لأن (جاسم) إنما وردت هنا لأجل القافية لا لمعنى فيها"(٥) -لم يفته أن يشير إلى أن (جاسم) "هي قريةٌ بالشام من أعمال دمشق، وفيها وُلد أبو تمام الطائي، وليس لجآذرها مَيزةٌ على غيرها، وقد سألت عن ذلك جماعةً ممن يَخبر تلك الناحية؛ فما وجدتُ عندهم فيها إلا ما عندهم في غيرها من البلاد"(٦)، فأيُّ

(١) سرُّ الفصاحة: ص/١٩٢.
(٢) سرُّ الفصاحة: ص/٢٠٩.
(٣) الحديث هنا عن الجناس.
(٤) سرُّ الفصاحة: ص/٢٩٠.
(٥) سرُّ الفصاحة: ص/٢٢٥.
(٦) سرُّ الفصاحة: ص/٢٢٥.

داعٍ استجلب ذِكر أبي تمام؟!، وقرنه بنفي المَيزة عن بلدته؟!، وانظر كيف عَنَّى نفسَه بسؤال الخبراء عن جآذر جاسم، وكأني به يقول –إن صدق حدسي: ليس لجاسم من مَيزةٍ، لا في بشرٍ (أبو تمام)، ولا في حيوانٍ (الجآذر)!.

إنَّ مثل هذه النصوص وغيرها[١] تنتقل بنا من عالَم الشكِّ في رفض ابن سِنان لأبي تمام – شِعرًا وشاعرًا– إلى عالَمٍ يقترب من اليقين، إن لم يكن هو عين اليقين.

٥. الوقوفُ بالمرصاد لمن يعتذر عن أبي تمَّام:

يحدُث أحيانًا أن يحاول البعض التماس العذر لأبي تمام فيما قال، لكنَّ هذا لا يمر بسلامٍ من بين يدي ابن سِنان، وإن أجاز هو لنفسه أن يلتمس العذرَ للبحتري[٢].

لقد أثار تعبيرُ أبي تمَّام: **(ماء المَلام)** ذائقة العديد من النقاد: الصولي، والآمدي، وغيرهما، وذلك في قوله:

لَا تَسْقِنِي مَاءَ الْمَلَامِ فَإِنَّنِي***صَبٌّ قَدِ اسْتَعْذَبْتُ مَاءَ بُكَائِي **(الكامل)**

وقد أسهم ابنُ سِنان فيما دار حول هذا البيت: نقدًا له بشدةٍ، وردًّا على من اعتذر عنه، وهذا ما يخصنا هنا، يقول: "وقد تصرف أصحاب أبي تمام في التأويل له"[٣]، ولعل في قوله: (أصحاب أبي تمام) ما يوحي بأنه ليس منهم، ثمَّ ذيل كلامهم بقوله: "وهذا الاعتذارُ فاسدٌ"[٤].

---

(١) يُنظر: سرُّ الفصاحة: ص/٢٢١، ٢٢٤.

(٢) يُنظر: سرُّ الفصاحة: ص/٨٣.

(٣) سرُّ الفصاحة: ص/٢٠١، ٢٠٢.

(٤) سرُّ الفصاحة: ص/٢٠٢.

لقد عُرف عن أبي بكر الصـــولي مَيلُه إلى أبي تمام، وتفضـــيلُه إياه على البحتري، صـــرح هو بذلك[١]، وقال به النقاد[٢]، وكان طبيعيًّا أن يرى أبا تمَّام محســـنًا في هذا البيت، يقول متعجبًا: "كيف يُعاب أبو تمام إذا قال: ماء الملام؟"[٣]، ومضى يعضد استحسانه بشواهدَ وآياتٍ قرآنية أوردها له ابنُ سِنان في ثلاث صـــفحات كاملة[٤]، ثم قال بعدها: "هذه جملة ما قاله أبو بكر، وهي غيرُ لائقةٍ بمثله من أهل العِلم بالشِّـــعر"[٥]، وهكذا فعل مع الآمدي لمَّا لم يرَ عيبًا في **(ماء المَلام)**[٦]، فما دام الأمر يتعلق بالدفاع عن أبي تمَّام فليس هو إلا فســـادٌ وغيرُ لائقٍ، وإن كان من العالِمين بالشِّعر المختارين عنده.

٦. إتْباعُ المدحِ بذمٍّ يغطيه:

يندُرُ أن تلتقط العينُ رضًـا عن أبي تمَّام في كتاب **(سـر الفصـاحة)**، لكنه – على كل حالٍ– ليس بمعدومٍ، فقد وصـف ابنُ سِـنان بعض أبيات أبي تمام بأنها **(مختارةٌ)**، لكنَّه دائمًا ما يُلحقُ هذا الوصـــف مباشـــرةً بوصـــفٍ مناقضٍ له غاية المناقضة.

فإذا وصـــفَ بيتًا واحدًا لأبي تمام بأنه من "الاســـتعارة المختارة"[٧]، أتبعه من فوره بثلاثة أبياتٍ أخذها عليه، وعقَّب عليها بقوله: "فإن أَخَادِعَ الدهرِ والشـتاءِ من أقبح الاســـتعارات، وأبعدها مما اســـتعيرت له، وليس بقبح ذلك خفاءٌ"[٨]، فإذا بما تقدم من مدحٍ خافتٍ –مجرد **(مختارة)**– يتوه في لُجةِ القبح والبُعد.

---

(١) يُنظر: أخبار أبي تمام: ص/٥، وأخبار البحتري: ص/٦٠.

(٢) يُنظر: النقد المنهجي عند العرب: ص/٨٦، ٩٣، ٩٨، وقضـــية الخصـــومة بين القدماء والمحدَثين وَتَجَلِّيَّاتهَا فِي النَّقْدِ العَرَبِيِّ القَدِيم: ص/٥٩٨، وقَضِـــيَّةُ المُوَازَنَةِ بَيْنَ الشُّـــعَرَاءِ وَتَجَلِّيَّاتهَا فِي النَّقْدِ العَرَبِيِّ القَدِيم: ص/٢٢٦.

(٣) سرُّ الفصاحة: ص/٢٠٢، ويُنظر: أخبار أبي تمام: ص/٣٣-٣٧.

(٤) يُنظر: سرُّ الفصاحة: ص/٢٠٢-٢٠٤.

(٥) سرُّ الفصاحة: ص/٢٠٥.

(٦) يُنظر: سرُّ الفصاحة: ص/٢٠٦، ٢٠٧.

(٧) سرُّ الفصاحة: ص/١٧٩.

(٨) سرُّ الفصاحة: ص/١٧٩.

وعندما تحدَّث عن المجانس/ الجناس أورد ثلاثة شـواهد لأبي تمام صـدَّرها بقوله: "ومن مجانس أبي تمام المختار"(١)، ثمَّ أردفها بخمسة شواهد صدرها بقوله: "ومن قبيح تجنيسـه"(٢)، وبين الاختيار والقبح بونٌ كبيرٌ، فهو لم يقابل **(المختار)** بـ**(غير المختار/ المردود)** مثلًا، بل اختار **(القبح)** ضدًّا، وما أقساه من ضدٍّ!، وبين التقديم والتأخير في التَّعليقيْن السابقيْن بونٌ أكبر؛ فهو إذ يؤخِّر المدح **(المختار)**؛ إيماءً إلى ندرته وقِلة خطره، يقدِّمُ الذَّم **(قبيح)**؛ اهتمامًا به، وتكثيرًا له.

٧. ثنائيةُ الاقتداء والتجنُّب:

دأب ابن سِنان على تقديم البحتري بوصفه مثالًا لما ينبغي أن يُقتدى به، فتارةً يقول: "وأما قول أبي عبادة البحتري... فلَعَمري إن هذه المقابلةُ الصحيحةُ"(٣)، وتارةً يقول: "فعلى هذا السبيل يُستحسنُ الإردافُ"(٤)، وليس يخفى ما في استعمال القَسم **(فلعمري)** من دلالةٍ على شِدة الإعجاب، وإرشادٍ إلى الطَّريقة المُثلى الكامنة فيما يقول البحتري، فسبيله هو السبيل الوحيد المستحسن، نستشف هذا من لجوئه –وهو البلاغي الأديب الناقد– إلى خاصية التَّقديم **(فعلى هذا السبيل)**، وهي هنا تفيد قصرًا للمِثال القدوة على ما يُنتج البحتري، فكأن المعنى: فعلى هذا السبيل، لا غيره.

فإذا ما وصلنا إلى أبي تمَّام وجدناه على النَّقيض من ذلك، وجدناه نموجًا لِما يجب تجنبه، فبعد أن يورد ثلاثة أبياتٍ لأبي تمام ويفندها تفنيدًا يقول: "فعلى هذا النحو يكون وضع الألفاظ في غير موضعها على الوجه الذي لا يوافق الاستعارة وحقيقتها، فتأمله وقِس غيره عليه"(٥)، فإذا كان سبيل البحتري هو السبيل المَرْضي، فإنَّ ما ينحوه أبو تمام هو النحو المرفوض، مع الاتكاء كذلك على خاصية التَّقديم

---

(١) سرُّ الفصاحة: ص/٢٨٨.
(٢) سرُّ الفصاحة: ص/٢٨٩.
(٣) سرُّ الفصاحة: ص/١٩٥ بتصرفٍ.
(٤) سرُّ الفصاحة: ص/٣٤٥.
(٥) سرُّ الفصاحة: ص/٢١٢.

(فعلى هذا النحو) التي تجعل من أبي تمام مثالًا للخطأ يقاس عليه؛ ليُتجنب **(فتأمله وقِس غيره عليه)**.

وفي تناوله لِما قد يقع من حشوٍ في الكلام نجده بعد سُخريته اللاذعة من بيتٍ لأبي تمام يقول: "ومثلُ هذا وأشباهُه الحشوُ الذي يقع ولا تَعرِض في ذِكره فائدةٌ إلا ليصح الوزن، وهو عيبٌ فاحشٌ في هذه الصِّناعة"(١)، ولو أنَّ هذا البيت كان ختام الحديث عن الحشـــو؛ لقلنا: إنَّه يزَيِّل كلامه بقاعدةٍ عامةٍ، لكنَّه أورد بعده ما يزيد عن عشرة أبياتٍ، ولا شكَّ أن قطع حبل الكلام يُسهم في تقديم أبي تمام بوصفه المثال **(ومثلُ هذا)** الواحب الابتعاد عنه، وإلا أُصيبت الصَّنعة بـ**(عيب)** ليس مجرد عيبٍ، بل هو **(فاحش)!**.

وعند حديثه عن **(المعاظلة)** بدأ ببيتٍ لأبي تمام قال عقِبه: "فهذا هو حقيقة المعاظلة"(٢)، فخطأ أبي تمَّام هو عين الخطأ وحقيقته.

إنَّ عبارات ابن سِنان في هذا القِسم **(تأليف الكلام/ الألفاظ المؤلَّفة)** شديدة القسوة على أبي تمام، شديدة الإعجاب بالبحتري، لا ترتضي المواربة، بل تتخذ من المباشرة نهجًا؛ لتضع في نهاية المطاف سياجًا من القُبح يخنق أبا تمام، وسياجًا من الحُسن يطلق جناحَي البحتري إلى عَنان السَّماء.

***

(١) سرُّ الفصاحة: ص/٢٢١.

(٢) سرُّ الفصاحة: ص/٢٣٢.

المبحثُ الثالثُ

المفاضلةُ بين الشاعرين في صحة المعاني

تكتمل أقسام كتاب **(سر الفصاحة)** بهذا القِسم، ولعل جعلَه أخيرًا عائدٌ إلى ما صرح به ابن سِنان من أنَّ المعاني "معيارُها العقلُ، والحاكم فيها الذِّهنُ"[١]، ومعنى هذا أنها لا تنبني على مواضعات اللغة واصطلاحاتها، كما هو الحال في الألفاظ: مفردةً ومركَّبةً، فقُدِّم ما قوامه اللغة **(الألفاظ والتراكيب)**؛ إذ الكتاب صُـــنع ابتداءً لاستيفاء الكلام على الفصاحة، والفصاحة من أوصاف الألفاظ لا المعاني.

ويستمرُّ خيط الاستدلال بأشعار الطَّائييْن في مسائل هذا القِسم استمراره في القِسمين السابقين، فيُفتتح الكلام بأبي تمام[٢]، ويُختتم بالبحتري[٣]، ويُكمل البحثُ مسيرته في استنطاق ما يكتنف هذه الأشعار من أحكامٍ وتعليقاتٍ؛ علَّها تُسهم في إكمال صورة المفاضلة المستنبطة بين الشَّاعرين في هذا السِّفر العظيم من أسفار النَّقد العربي القديم.

***

(١) سرُّ الفصاحة: ص/٣٤٩.

(٢) في الصفحة الرابعة من هذا القِسم يرد ذِكر أبي تمام. يُنظر: سرُّ الفصاحة: ص/٣٥٢، والقِسم يبدأ بصفحة (٣٤٩).

(٣) في الصفحة قبل الأخيرة من هذا القِسم يرد ذِكر البحتري. يُنظر: سرُّ الفصاحة: ص/٤١٤، والقِسم ينتهي بصفحة (٤١٥).

جدولٌ يوضح تعليقات ابن سِنان على أشعار أبي تمام والبحتري في الجزء الخاص بالحديث عن صحة المعاني

م	الموضوع	أبو تمَّام	البحتري
١	**الأقسام الفاسدة**	– ذمَّ له بيتًا. * "فهذا فاسدٌ"(١).	– أورد له بيتًا عابه عليه **الآمديُّ**، وشفعه باعتذار الشَّريف المرتضَى عنه(٢).
٢	**التناقض**	– أورد له بيتين عابهما **الآمديُّ**، وردَّ على الآمديِّ ما ذهب إليه(٣). – ثمَّ أورد له أربعة أبيات عابها **الآمديُّ**(٤)، وقال بعد الأخير منها: "وهذا الذي ذَكره أبو القاسم **(الآمدي)** صحيحٌ واضحٌ"(٥).	– أورد له بيتًا، وقال بعده: "فليس هذا من المتناقض"(٦).
٣	**صحة التشبيه**	– لم يورد له شيئًا.	– أورد بيتًا للتَّمثيل، بلا تعليقٍ(٧).
٤	**الوصف بما لا يليق**	– عاب عليه أربعة أبيات(٨).	– عاب عليه بيتين(٩).
٥	**حُسن التخلص**	– أورد له بيتين على سبيل التَّمثيل، بلا تعليقٍ(١٠).	– مدح له بيتين، صدَّرهما بقوله: "ومما يُستحسن..."(١١). – أورد بيتين للتَّمثيل، بلا تعليقٍ(١٢).

(١) سرُّ الفصاحة: ص/٣٥٣.
(٢) يُنظر: سرُّ الفصاحة: ص/٣٥٦.
(٣) يُنظر: سرُّ الفصاحة: ص/٣٦١.
(٤) يُنظر: سرُّ الفصاحة: ص/٣٦٤، ٣٦٥.
(٥) سرُّ الفصاحة: ص/٣٦٦.
(٦) سرُّ الفصاحة: ص/٣٦٣.
(٧) يُنظر: سرُّ الفصاحة: ص/٣٧٤.
(٨) يُنظر: سرُّ الفصاحة: ص/٣٩٥، ٣٩٦.
(٩) يُنظر: سرُّ الفصاحة: ص/٣٨٢، ٣٨٣.
(١٠) يُنظر: سرُّ الفصاحة: ص/٤٠٣.
(١١) سرُّ الفصاحة: ص/٤٠٠.
(١٢) يُنظر: سرُّ الفصاحة: ص/٤٠٢.

م	الموضوع	أبو تمَّام	البحتري
٦	**المبالغة**	– لم يورد له شيئًا.	– أورد بيتًا على سبيل التَّمثيل(١).
٧	**التحرز ممَّا يوجب الطَّعن**	– لم يورد له شيئًا.	– أورد له بيتين على سبيل التَّمثيل(٢).
٨	**الاستدلال بالتَّمثيلِ**	– أورد له أربعة أبياتٍ على سبيل التَّمثيل، بلا تعليقٍ(٣).	– أورد له بيتين على سبيل التَّمثيل، بلا تعليقٍ(٤). – عاب عليه بيتًا واحدًا، وقال بعده: "فليس بتمثيلٍ جيدٍ"(٥).
٩	**الاستدلال بالتَّعليل**	– لم يورد له شيئًا.	– أورد بيتًا على سبيل التَّمثيل(٦).

***

تعقيباتٌ على الجدول السابق (مجال صحة المعاني بين الشَّاعريْن):

١. قِلة الأبيات المَعيبة:

فرقٌ كبيرٌ بين ما في هذا القِسم من أبياتٍ –من حيث الكَمّ– وأبيات القِسمين السَّابقين، وإن كان ما أُخذ على أبي تمام فيه(٧) أكثر مما أُخذ على البحتري(٨).

٢. خُفوت حدة التَّعليقات السلبية:

تختفي في هذا القِسم –فيما يخص البحث– كلمة **(القبح)** ومشتقاتها، وإن كانت النَّبرة مع أبي تمام لا تزال أعلى درجة منها مع البحتري، فمع الأول يقول:

---

(١) يُنظر: سرُّ الفصاحة: ص/٤٠٦.

(٢) يُنظر: سرُّ الفصاحة: ص/٤١١.

(٣) يُنظر: سرُّ الفصاحة: ص/٤١٢.

(٤) يُنظر: سرُّ الفصاحة: ص/٤١٢، ٤١٣.

(٥) سرُّ الفصاحة: ص/٤١٣.

(٦) يُنظر: سرُّ الفصاحة: ص/٤١٤.

(٧) عِيب على أبي تمام (تسعةُ) أبياتٍ: يُنظر: سرُّ الفصاحة: ص/٣٥٣، ٣٦٤، ٣٦٥، ٣٩٥، ٣٩٦.

(٨) عِيب على البحتري (ثلاثة) أبياتٍ: يُنظر: سرُّ الفصاحة: ص/٣٨٢، ٣٨٣، ٤١٣.

(وهذا فاســدٌ)، ومع الثاني يقول: **(فليس بتمثيلٍ جيدٍ)**، ونفْي الجودة –فيما أرى– أخف وطأةً من الفساد.

وقد عاب ابن سنان على الشاعرين معًا أبياتًا عند حديثه عن **(الوصف بما لا يليق)**، فجعل أبا تمام يفوق البحتري في المأخوذ عليه، فعاب عليه **(أربعة)** أبياتٍ بلا فاصل بينها، وأورد سبب العيب فيها كلها، وعاب على البحتري **(بيتين)** فقط، فَصل بينهما، وعلَّل لواحد منهما فقط.

٣. كثرة التمثيلِ بلا تعليقٍ:

يُلاحَظُ في هذا القِسم أنَّ ابن سِنان كثيرًا ما يوردُ أبياتًا للشَّاعرين على سبيل التَّمثيل، دون أن يُعلق بشــيءٍ، ولعل هذا يرجع إلى أنَّه قد اســتفرغ جهده فيما ما مضى ممَّا مجالُ الأخذ والرد فيه متسعٌ للغاية، وأما حصر المعاني فهو –على حد قول ابن سِــنان في مطلع حديثه عن المعاني– "فعســير متعب... لأنه ثمرة علم المنطق، ونتيجة صــــناعة الكلام"(١)، ومن ثم اعتمد الإيجاز، يقول: "نحتاج أن نومئ إلى المعاني"(٢)، مجرد إيماء، وقد أعاد مضمون هذا الكلام في ختام الكلام على المعاني، فقال: "فهذا مبلغ ما نقوله في المعاني مما يُســـتدل به على غيره؛ لأن حصرها مما لا سبيل إليه"(٣)، ومما يبرهن على قِصر النفَس في هذا القِسم اعتمادُه بشــكلٍ لافتٍ على السَّــابقين في هذه القِســم على الرغم من قِلة عدد صفحاته، وبخاصــةٍ الآمدي(٤)، وتجدر الإشــارة إلى أن هذا التمثيل المحايد **(بلا تعليق)** كان بشِعر البحتري أكثر من شِعر أبي تمَّام(٥)، وربما يوحي هذا بأنَّ شِعر البحتري –في نظر ابن سِنان– هو ما يجب أن يكون مثالًا وحُجةً.

---

(١) سرُّ الفصاحة: ص/٣٤٩ بتصرفٍ.

(٢) سرُّ الفصاحة: ص/٣٤٩.

(٣) سرُّ الفصاحة: ص/٤١٥.

(٤) يُنظر: ســرُّ الفصــاحة: الآمدي: ص/٣٥٦، ٣٦١، ٣٦٤، ٣٦٥، ٣٦٦، ٣٩٧، ٣٩٨، والشــريف المرتضَــى: ص/٣٥٦، والجاحظ: ص/٣٥٨، وقدامة بن جعفر: ص/٣٦٢، ٣٩٦، وغيرهم: ص/٤٠٥، ٤١٠، ٤١١.

(٥) للبحتري (تسعة) أبياتٍ، ولأبي تمام (ستة).

٤. دفاعٌ عن أبي تمام:

ثَمَّ دِفاعٌ وحيدٌ –فيما وجدتُ– عن أبي تمام في كتاب **(سر الفصاحة)**، وهو دفاعٌ أمام الآمدي –الأستاذ الأثير لدى ابن سِنان، فلقد ذَكر الآمدي أنَّ أبا تمام تناقَضَ في بيتين، فردَّ ابنُ سِنان رأيه، وقال: "وهذا من أبي القاسم **(الآمدي)** تحامَلٌ على أبي تمام"(١)، وقد صرَّح فيه أخيرًا بأنَّ تحامُلا ما وقع على أبي تمام**!**.

***

إنَّ أدرى النَّاس بما في ضمير الكاتب وقناعته هو الكاتبُ نفسه، وكثيرًا ما تُفصح السُّطور عن هذا الضمير وتلك القناعة: إنْ قصدًا، وإنْ بغير قصدٍ.

ويبدو لي –بِناءً على استنطاق النصوص واستكناه ما بين العبارات– أنَّ ابن سِنان كان في قرارة نفسه مائلًا إلى البحتري، مائلًا عن أبي تمام، وأنه كان مدركًا الإدراك كله لِما يَظهر في كتابته من الميل إلى أو الميل عن، يحدونا إلى هذا الرأي نَصَّان وردَا في موضعين متباعدين في كتاب **(سر الفصاحة)**:

أ) النَّصُّ الأول:

"وليس إيرادي هذه الأمثلة على جهةِ الطعن على هؤلاء الشعراء الفضلاء والغضِّ منهم... لكني إذا احتجتُ إلى إيراد الأمثلة في المختار والمنبوذ، والمحمود والمذموم، فلا معدِل لي عن أشعارهم، وتصفح نَظمهم، وأخذ ما أريده منها، وإيراده عنها في الصِّنفين معًا"(٢).

إنَّ ابن سِنان في هذا النَّصَّ يقرر أمرين: **الأول:** أنه ليس من منهجه الطعنُ ولا الغضُّ، **والثاني:** أنه سيقيم كتابه على المراوحة بين ممدوح الشِّعر ومذمومه.

لكنَّ رحلة البحث أثبتت نقيض هذين الأمرين: أثبتت –**أولًا**– طعنًا على أبي تمامٍ ما بعده طعنٌ، وغضًّا منه غاية الغضِّ، ويكفي أنه –عقب هذا النَّص مباشرةً– حمل عليه حملًا شديدًا، حيث ذَمَّ له ثلاثة أبياتٍ، وعلقَ عليها تعليقات

(١) سرُّ الفصاحة: ص/٣٦١.

(٢) سرُّ الفصاحة: ص/٩٢ بتصرفٍ.

شـــديدة اللهجة: فكلمةٌ هي "**في القبح تُوفِي على كل قبيح**"(١)، وأخرى "**غايةٌ في السُّخف**"(٢)، وثالثة "**لا يحسُن نَظم مثلها**"(٣).

وأثبتت -**ثانيًا**- شُحًّا في إيراد الممدوح من أشعار أبي تمام، وهو كثيرٌ بشهادة النقاد(٤)، يقابله شُـــحٌّ في إيراد المذموم من أشـــعار البحتري، وهو كثيرٌ كذلك باعتراف الآمدي نفسه(٥)، وهو من أشد المناصرين له، فلا صونًا لشخص أبي تمام من الطَّعنِ والغضِّ، ولا إنصـــافًا له بذِكر جيده كما ذُكر رديئه، وإنما هو الحشَفُ وسوءُ الكَيلةِ!.

ب) النَّصُّ الثاني:

"قد قدمنا فيما مضـــى من هذا الكتاب أننا لم نذكر هذه الأبيات الذميمة وغرضـــنا الطعن على ناظمها، وإنما قادتنا الحاجة في التمثيل إلى ذكر الجيد والرديء والفاسـد والصـحيح على ما ذكرناه سـالفًا، ومعاذ الله أن يُخرجنا بُغض التقليد وحب النظر من الطرف المذموم في الاتباع والانقياد إلى الجانب الآخر في التسرع إلى نقص الفضـلاء، والتشييد لما لعله اشتبه على بعض العلماء، والرغبة في الخلاف لهم وإيثار الطعن عليهم، بل نتوسط إن شاء الله بين هاتين المنزلتين فننظر في أقوالهم ونتأمل المأثور عنهم، ونسـلط عليه صـافيَ الذهن ونرهف له ماضيَ الفكر فما وجدناه موافقًا للبرهان وسليمًا على السَّبر اعترفنا بفضيلة السبق فيه، وأقررنا لهم بحسن النهج لسبيله.

---

(١) سرُّ الفصاحة: ص/٩٣.

(٢) سرُّ الفصاحة: ص/٩٤.

(٣) سرُّ الفصاحة: ص/٩٤.

(٤) يقول عبد الله بن المعتز عن أبي تمام: "وأكثر ما له جيد". رسـالة في محاسـن أبي تمام ومساوئه: ص/٣٠٦، ويقول: "وشِعره كله حسنٌ". طبقات الشعراء: ص/٢٨٤.

(٥) يقول الآمدي عن البحتري: "أن ابن أبي طاهر... أخرج للبحتري سـتمائة بيتٍ مسـروقٍ، ومنها ما أخذه من أبي تمام خاصـةً مائة بيتٍ". الموازنة بين شِـعر أبي تمام والبحتري: ٣١١/١ بتصرفٍ.

وما خالف ذلك وباينه اجتهدنا في تأويله وإقامة المعاذير فيه، وحملناه على أحسن وجوهه وأجمل سبله، إيجابًا لحقهم الذي لا يُنكر، وإذعانًا لفضلهم الذي لا يُجحد، وعِلمًا أنهم لم يؤتَوا من ضلالة ولا كلال ذهن وفطنة"(١).

إنَّ هذا النص –وقد أوردته على طوله لحاجة البحث إليه– يقرر عدة أمور:

- اعتراف ابن سِنان بأنه ألحَّ على هذه الفكرة **(قدمنا فيما مضى من هذا الكتاب)**.
- نفي الطعن على ذوات المبدعين **(لم نذكر هذه الأبيات الذميمة وغرضنا الطعن على ناظمها)**.
- قيام التمثيل على دِعامتي الجودة والرداءة معًا **(ذكر الجيد والرديء والفاسد والصحيح)**.
- التصريح بالتوسط بين المدح والذم **(نتوسط... بين هاتين المنزلتين)**.
- الإشادة بأفضال السابقين **(اعترفنا بفضيلة السبق... وأقررنا بحسن النهج)**.
- محاولة الاعتذار عن أخطاء السابقين **(اجتهدنا في تأويله وإقامة المعاذير فيه، وحملناه على أحسن وجوهه وأجمل سبله)**.
- أخطاء الشعراء ليست من خلل فِطَن ولا عيب أذهان **(لم يؤتَوا من ضلالة ولا كلال ذهن وفطنة)**.

لم يأتِ هذا الإلحاح من فراغٍ، وإنما هو –عندي– شعور داخلي بالتجاوز ينتاب ابن سِنان؛ فيشرع في دفعه عن نفسه، مؤكدًا أنه لا يقصد كذا، بل يقصد كَيْتَ وكَيْتَ، ولا يُغني هذا الإلحاح التنظيري عن التطبيق العملي شيئًا.

لقد جاء التطبيق العملي لهذه القرارات منافيًا لِما نُظِّر فيها، مفصحًا –في الوقت ذاته– عن الباعث الكامن وراء التأكيد والإلحاح، على الأقل فيما يتعلق بأبي تمام والبحتري؛ فالطَّعن الشَّديد على أبي تمام **(ذاتًا مبدعةً)** بادٍ في الكتاب من أوله إلى آخره، واختيار رديء أبي تمام دون جيده هو الديدن، وليس من توسطٍ

(١) سرُّ الفصاحة: ص/٢٠٩، ٢١٠.

في التعامل مع أبي تمام والبحتري، وإنما هو الذمُّ للأول والمدح للثاني طَوال الطَّريق.

وأما اعترافٌ بفضلٍ أو اعتذارٌ لعيبٍ، فليس هذا في حق أبي تمام بالصحيح، ولا بالمقارب للصِّحة، بل هو للبحتري وحده في هذه الموازنة المستخفية، فما مِن اعترافٍ بفضلٍ لأبي تمام، ولا من اعتذار عنه، بل ضد ذلك هو الصحيح، لقد سُلب كلَّ نفعٍ، وأُغلق باب الاعتذار دونه، فـ**(ليس يُغفر... ذنبٌ، ولا يُغفل... عن خطاءٍ)**، و**(يجب لومه والإنكار عليه)**، ومن ثَمَّ **(كيف نعذره؟)**.

وأما أنَّ أخطاء أبي تمام لا تقدح في ذهن ولا فطنة، فيكفي أنَّ ابن سِنان – وهذا عجيبٌ– قد أورد النَّص السابق بعد ذم أبياتٍ عديدةٍ لأبي تمام، ثمَّ ختم هذا الذم بقوله: "**لكن أَعْوَزَ الكمالُ، واستولى الخللُ على هذه الطباع**"(١)، فماذا يبقى لأبي تمام إذا استشرى الخلل في طبعه؟!.

إنَّ هذين النصيْن معًا يُثبتان ما يتجه إليه الفِكر من أنَّ ابن سِنان –**أولًا**– كان في قرارة نفسه مفضلًا للبحتري ومذهبه الشِّعري، مجافيًا لأبي تمام وطريقته، **وثانيًا**: أنه أحسَّ إحساسًا قويًّا بمدى خروجه هو في نقده عن المألوف من الأخذ على الغير إلى الطَّعن واللمز والسُّخْرية، **وثالثًا** –وهو مهمٌّ جدًّا– أنه أدرك أنَّ المتلقي حتمًا سيصله هذا الإحساس بقوةٍ؛ فراح يدفع عن نفسه بمثل ما ورد في هذين النَّصين، فإذا بالدَّفع دليلُ إدانة!.

***

(١) سرُّ الفصاحة: ص/٢٠٩.

الخاتمة

حاول هذا البحث استشفاف ملامح المفاضلة بين شاعريْن علمَيْن: أبي تمام والبحتري، في كتابٍ مؤثِّرٍ في مسيرةِ التأليف العربي: سر الفصاحة لابن سِنان الخفاجي، وقد انتهى إلى عدة نتائج، لعل من أهمها ما يأتي:

١. تناولَ النقاد كتاب **(سر الفصاحة)** بوصفه أُسًّا من أسس التقعيد للبلاغة والنقد العربييْن، ولم يُشر أحدهم –فيما طالعتُ– إلى موقفه من المفاضلة بين الشاعرين.

٢. قسَّم ابن سِنان كتابَه تقسيمًا واعيًا، راعى فيه الشكل **(الألفاظ، والتراكيب)**، والمضمون **(المعاني)**، وقد أثبت –من وراء حجابٍ– تأخرَ أبي تمام وتقدمَ البحتري في الأقسام كلها، وليس يخفى أنَّ وَسْمَ إبداعٍ ما بالتَّخلف –**شكلًا ومضمونًا**– يزعزعُ الثقةَ فيه على أقل احتمالٍ.

٣. حضرَ الشاعران: أبو تمام والبحتري بقوةٍ في كتاب **(سر الفصاحة)** من أوله إلى آخره، وقد التزم مؤلفه خطًّا واحدًا في الطَّعن على أبي تمام، والرفع من شأن البحتري؛ ولذلك ما من شكٍّ –لدى الباحث– في أنَّ ابن سِنان كان يميل إلى البحتري، وأنه خطَّط سلفًا لهذه الموزانة المتوارية؛ فبثَّ أشعار الرجلين في جنبات الكِتاب، ووزَّع تعليقاته عليها بدِقةٍ متناهية، وهو في ذلك يشايع الآمدي، وينحو نحوه في قول كل ما يُريد، دون التَّصريح بأنه يريدُ.

٤. يربو ما جُلبَ وذُمَّ من أشعار أبي تمام على ما جُلب للبحتري بكثيرٍ؛ إيماءً إلى استحواذ الخلل على أبي تمام، يؤيد ذلك أنَّ قِسم **(الألفاظ المؤلَّفة/ التراكيب)** هو أكثر ما عِيب فيه أبو تمام، ولعل ابن سِنان قصد هذا؛ إذ من المعلوم أنَّ براعة الشِّاعر تبدو أظهر ما تبدو في نَظمه للكلام وتأليفه للجُمل، فإن هو ضُرب في هذا الأمر ضُرب في مقتلٍ، فلا بُرء له، ولا أمل فيه.

***

قائمة المصادر والمراجع

أولًا: المصادر:

- سرُّ الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، تحقيق: د/ النبوي عبد الواحد شعلان، حقوق الطبع خاصة بالمحقق، دون بيانات نشر.

ثانيًا: المراجع:

١. أخبار أبي تمام، أبو بكر محمد بن يحيى الصَّـــولي، تحقيق: خليل محمود عســـاكر، محمد عبده عزام، نظير الإســـلام الهندي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٣٥٦هـ/ ١٩٣٧م.

٢. أخبار البحتري، أبو بكر محمد بن يحيى الصَّولي، تحقيق: د/ صالح الأشتر، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٨م.

٣. أســـرار البلاغة، الإمام عبد القاهر الجرجاني، تحقيق د/ محمد عبد المنعم خفاجي، مكتبة القاهرة، ط/٣، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

٤. البيان العربي دراسة تاريخية فنية في أصول البلاغة العربية، د/ بدوي طبانة، مكتبة الأنجلو المِصرية، ط/٢، ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٨م.

٥. تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها، د/ أحمد مصـــطفى المراغي، مطبعة مصطفى الباب الحلبي، مِصر، ط/١، ١٣٦٩هـ/ ١٩٥٠م.

٦. تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصـــر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري، طه أحمد إبراهيم، دون بيانات نشر.

٧. تاريخ النقد الأدبي عند العرب: نقد الشِّـعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري، د/ إحســـان عباس، دار الثقافة، بيروت/ لُبنان، ط/٤، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م.

٨. الجامع الكبير في صـــناعة المنظوم من الكلام والمنثور، ضـــياء الدين بن الأثير، تحقيق/ د: مصـطفى جواد، ود: جميل سـعيد، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٩٥٦م/ ١٣٧٥هـ.

٩. حلية المحاضرة في صناعة الشِّعر، أبو علي محمد بن الحسن بن المظفر الحاتمي، تحقيق: د/ جعفر الكتاني، وزارة الثقافة والإعلام، العراق، سلسلة كتب التراث، ع/٨٢، ١٩٧٩م.
١٠. الخصومة بين القدماء والمحدَثين في النقد العربي القديم – تاريخها وقضاياها، د/ عثمان موافي، دار المعرفة الجامعية، ٢٠٠٠م.
١١. رسالة في محاسن أبي تمام ومساوئه، عبد الله من المعتز، ت: د/ عبد الكريم الحبيب، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، ع/٤٨، ١/١/١٩٩٥م.
١٢. طبقات الشعراء، عبد الله بن المعتز، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، دار المعارف، مِصر، سلسلة ذخائر العرب، ع/٢٠.
١٣. العمدة في محاسن الشِّعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مِصر، ط/٢، ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٥م.
١٤. عمود الشِّعر في ميزان النقد (بحث)، د/ فاطمة يمينة، مجلة موازين، الجزائر، ع/١، م/٢، يونيو ٢٠٢٠م.
١٥. في نظرية الأدب، من قضايا الشِّعر والنثر في النقد العربي القديم، د/ عثمان موافي، دار المعرفة الجامعية، ٢٠٠٠م.
١٦. قراءة التراث النقدي، د/جابر عصفور، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مِصر، ط/١، ١٩٩٤م.
١٧. قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، د/ محمد زكي العشماوي، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٩م.
١٨. قضايا النقد الأدبي في القرن الثالث الهجري، د/ محمد الشريدة، دار الينابيع، عمان، ط/١، ٢٠٠٥م.
١٩. قضية الخصومة بين القدماء والمحدَثين وَتَجَلِّيَاتهَا فِي النَّقْدِ العَرَبِيِّ القَدِيم (بحث)، د/ طارق زيناي، مجلة علوم اللغة العربية وآدابها، الجزائر، ع/١، م/١٣، مارس ٢٠٢١م.
٢٠. قضية عمود الشعر وتجلياتها في النقد العربي القديم، د/ طارق زيناي، مجلة كتامة، الجزائر، م/١، ديسمبر ٢٠٢٢م.

٢١. قضـــية القِدم والحداثة في الشِّـــعر العربي، د/ فهد محمد ديب الجَمل، غزة، فلسطين، ١٤٤٣هـ/ ٢٠٢٢م.

٢٢. قَضِـــيَّةُ المُوَازَنَةِ بَيْنَ الشُّـــعَرَاءِ وَتَجَلِّيَّاتهَا فِي النَّقْدِ العَرَبِيِّ القَدِيم (بحث)، د/ طارق زيناي، مجلة الباحث، الجزائر، ع/٣، م/١٢، ٢٠٢٠م.

٢٣. كتاب البديع، عبد الله بن المعتز، تحقيق: إغناطيوس كراتشـكوفسـكي، دار المسيرة، بيروت، ط/٣، ١٤٠٢هـ، ١٩٨٢م.

٢٤. كتاب سر الفصاحة لابن سِنان الخفاجي (ت/٤٦٦هـ) المفترى عليه (بحث)، د/عبد المنعم السيد الشحات رزق، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية، دمياط، مِصر، ع/٧، ٢٠١٩م.

٢٥. المثل الســـائر، ضـــياء الدِّين بن الأثير، تحقيق/ محمد محيي الدِّين عبد الحميد، شـــركة مكتبة ومطبعة مصـــطفى البابي الحلبي وأولاده بمصـــر، ١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩هـ.

٢٦. محاضـــرات عن خليل مطران، د/ محمد مندور، معهد الدراســـات العربية العالية، جامعة الدول العربية، ١٩٥٤م.

٢٧. معجم الأدبـاء، يـاقوت الحموي، مراجعـة وزارة المعـارف العموميـة، مكتبـة عيسى البابي الحلبي وشركاه، مِصر، الطبعة الأخيرة.

٢٨. من قضـــايا البلاغة والنقد، د/ عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني، مكتبة وهبة، القاهرة، ط/١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

٢٩. من قضـــايا التراث العربي دراســـة نصـــية نقدية تحليلية مقارنة – الشِّـــعر والشاعر، د/ فتحي أحمد عامر، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٨٥م.

٣٠. من قضـايا التراث العربي دراسـة نصـية نقدية تحليلية مقارنة – النقد والناقد، د/ فتحي أحمد عامر، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٨٥م.

٣١. الموازنة بين شِـعر أبي تمام والبحتري، أبو القاسـم الحسـن بن بِشـر الآمدي، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة، ط/٤، ١٩٩٢م.

٣٢. نظرية عمود الشِّــعر مرحلة التأســيس وما بعد التأســيس والاكتمال (بحث)، ميمون قويدر، قراش محمد، مجلة القارئ للدراســات الأدبية والنقدية واللُّغوية، الجزائر، ع/١، م/٥، مارس ٢٠٢٢م.
٣٣. نقد الشِّـــعر عند العرب حتى القرن الخامس للهجرة، د/ أمجد الطرابلســـي، ترجمة: إدريس بلمليح، دار توبقال، المغرب، ط/١، ١٩٩٣م.
٣٤. نقد الشِّـــعر في الأدب العربي، نســـيب عازار، دار المكشـــوف، بيروت، ١٩٣٩م.
٣٥. النقد المنهجي عند العرب، د/ محمد مندور، نهضة مِصر، ١٩٩٦م.
٣٦. الوســاطة بين المتنبي وخصــومه، القاضـــي علي بن عبد العزيز الجرجاني، تحقيق: محمد أبو الفضـــل إبراهيم، علي محمد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية، ط/٣، ١٣٧٩هـ/ ١٩٥١م.

***